مشارف اليقين

محمد جبريل

مشارف اليقين

تأليف
محمد جبريل

هنـــداوي

مشارف اليقين

محمد جبريل

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، ونسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٨ ٣٤٨٧ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ٢٠٢١.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الأستاذ محمد جبريل.

المحتويات

صيد يقاوم الشباك	٩
السير إلى مقام المراد	١٣
الوحدة حياتي	١٧
كن معي ... لا تفارقني	٢٣
ستر الحال	٢٧
في حضرة المؤانسة	٣٩
شمس لي	٤٣
الإبحار في المستحيل	٤٧
عندما تتحرك الظلال	٥٣
كيف أعوم وأنا لا أحسن السباحة؟	٥٩
الترقي في مراحل السلوك	٦٣
بيت الصوفية	٦٥
العيش في منازل السالكين	٧١
هذا ليس خادم المصباح	٨١
الطريق إلى مقام أطلبه	٨٥

سئل جلجامش: لماذا تحاول المستحيل؟
قال: إذا كان هذا الأمر لا تجوز محاولته، فلماذا اتَّقدت في نفسي نار القلق والرغبة فيه؟

صيد يقاوم الشباك

استيقظت متنبهًا على صوت من داخل الشقة.

قمت بأعلى الصدر، أرهفت السمع أتبيَّن مصدر الصوت، لكن السكون ظل سادرًا، فكرت في أن أتجه ناحية الصوت، ثم فضَّلت البقاء في السرير.

تركت الحجرات مغلقة، فغاب وقت النهار، عدا ضوءًا شحيحًا من نافذة المطبخ.

الضوء المتسرب من تحت باب الشقة يختفي، ويعود، أفسِّر ما يحدث بظلال مَن يقفون أمام الشقة، يقتربون، يلامسون الباب، ثم يغيبون، ويعودون ثانية. أتهيأ للنهوض بتوالي تسرُّب الضوء وانحساره، يتكرر الفعل، ويتكرر تهيُّئي لرد فعل تغيب ملامحه، اتسعت في نفسي دوائر القلق، تشدني الأصوات الهامسة والزاعقة، أتوقع من يترصد لي بالأذى، أُرهف السمع لوقع أقدام في الطرقة الموصلة إلى المطبخ.

هل تركت نافذة المنور مفتوحة؟

الجيرة القديمة بين السكان وأسرتي تلغي الحذر، حتى الجيران الذين أقاموا في شقة السنباطي، بعد خلوها، بدوا في حالهم.

ورث أبي البيت عن أبيه، إيجار شقتَي الطابق الأرضي يضيف إلى دخلي الشهري، فأواجه العيش.

وأنا أغادر الشقة، ألتقط من الثياب ما يسهل ارتداؤه، ونزعه، عند عودتي — متعبًا — إلى البيت. ربما أغلقت باب الشقة ورائي، دون أن أنظف أسناني، أو أغسل وجهي، أو أمشط شعري، حتى الوضوء أرجئه لتوجهي إلى بيت الصوفية.

شقة الطابق الأرضي المواجهة لباب البيت من ناحية اليمين، اعتدت إغلاقها منذ جعلها الحاج فرغلي الدش — تاجر أدوات الصيد بوكالة الليمون — مخزنًا لبضاعته، إلى اليسار، شقة السكان الذين خلَفوا أسرة حنفي السنباطي بعد رحيلها.

حرصت أن أجاوز الطابق الأرضي دون التفات، أرقى السلالم إلى الطابق الأول، أفتح الباب، وأدخل باطمئنان لا يدفعني إلى مغالبة الحذر. ربما صادفت من يبادرني — أو أبادره — بالتحية، وأواصل الصعود، أتنبه على شعور يراودني بأن الفراغ من حولي ليس كذلك، أعاني خوفًا غامضًا من شيء أجهله.

أتجه إلى النافذة المطلة على شارع سليم البشري. ربما يطل منها ما أتوقع، لثبات رؤية ما في الشارع، اعتدت السَّير جوار أبوابه، ومجاوزتها: على الناصية قهوة لها بابان على تقاطع الشارعين، يلاصقها دكان لبيع المكرونة والأرز باللبن، علاف، سمكري، تاجر مانيفاتورة، في الناحية المواجهة دكان لبيع الفول والطعمية، صالون حلاقة، دكان فراشة، معرض لبيع الأدوات المنزلية، أمضي في شارع سيدي داود الخالي من المحالِّ، حتى نهايته في المسافرخانة، أتجه — على اليمين — إلى الحجاري، أو — على اليسار — إلى صفر باشا، ومنه إلى رأس التين.

أتحول — بنظراتي — إلى السقف والجدران والأثاث والمساحات الخالية.

تعروني ارتعاشة لسماع أي صوت، رنين جرس الباب، أو التليفون، ترامي نداء مفاجئ من الطريق، عشرات الأعين والآذان تلتقط الكلمات والتصرفات. أعاني الارتباك لتصور أن الشقة خضعت للمراقبة، السماعات والعدسات وأجهزة التنصت مبثوثة في الأسقف والزوايا وخلف النوافذ والأبواب، حتى دورة المياه أخشى عدسة في زاوية سقفها، حتى الجدران، أشعر أنها تحولت إلى آذان تنقل ما تسمعه إلى ماورائها، أعيد النظر إلى وجه عابر، أتبين العداء في ملامحه. ربما اختلطوا برواد قهوة أنَّح، أو اندسوا في المترددين على جامع سيدي نصر الدين، تظاهروا بالفرجة على صيد الجرافة، ضمن الواقفين على الكورنيش، وقف أحدهم خلف ستارة النافذة، تهتز دون أن يتحرك الهواء.

لم أكن نائمًا.

تنبهت إلى انفراج ستارة النافذة، تخللت اللحظة الوامضة التقاط السحنة شاحبة الملامح، وإن تركت في نفسي تأثيرًا قاسيًا، كتمت رغبتي في مواجهة الخطر. ربما يملك من القوة ما لا أعرفه.

أعدت النظر إلى ما رأيت، تأملت: أرنب الغابة في لوحة الكانفاه المعلقة على الجدار، تحرك في موضعه، كأنه يتهيأ لمغادرة الإطار، لا أعرف من دبر المؤامرة، ومن شارك فيها، تشابكت الخيوط حولي، لم أتبين طرفها، لا أعرفهم فأتصدى لهم.

ما الجريمة التي ارتكبتها، فأستحق عليها العقاب؟

اتُّهمت بأني ضُبطت أعانق المرأة على رمال الشاطئ، أخذني الهياج، فتناسيت الأعين الراصدة.

لم يحدث، لكن الاتهام انتشر، وغذاه آخرون، انتقلت الحكاية بين طاولات القهاوي، والقعدات أمام البيوت، والحضرات في الزوايا وقبالة المساجد، لم أفعل إلا أن أنقذتها من الغرق، خيال مَن لا أعرفه نسج ما لا يمكن تصديقه.

قيل إني حاولت أن أقبلها ... حتى الشيطان نفسه يرفض ذلك.

أحزنني قول الشيخ أنور أبو مندور — واعظ مسجد سيدي نصر الدين — إني غير قادر على صون نفسي من غواية امرأة، تحولت سمعتي إلى مضغة، يلوكونها بالتشفي، أعاني المراقبة والمتابعة والمطاردة، وحصار النظرات والتلميحات والإيماءات والكلمات التي تتعثر فوق الشفاه، ثم تتلاشى.

ما حدث هو مجرد رغبة في تحطيمي.

قيل إني إذا تحركت غريزتي، نزلت الطريق أبحث عن امرأة أطفئ في جسدها نيراني، أسير في الشوارع، أترك لعيني اختيار امرأة تشتهيها، أحاول أن أنشئ معها علاقة.

قهرني الشعور بأني غير قادر على حماية نفسي من المؤامرات التي لا تنتهي، تداهمني بالعجز والخوف والمطاردة والقهر والخطر، كأن العالم يتداعى من حولي.

الأمر أقسى مما أحتمل، يفوقون قدرتي على التنبه، وعلى الفعل، يحيط بي ما لا حصر له من الشياطين والجان والمردة والعفاريت، يعتمل في داخلي الإحساس بالعجز عن الفعل فيما لا قبل لي بمواجهته.

بدت الدنيا في عيني مظلمة، كريهة، لا تحتمل.

لا أعرف أين أتجه بخطواتي، عيناي تتفحصان كل ما حولي، تتلمسان الملامح والوجوه والتعبيرات، النظرات المستريبة، والمتسائلة، والمتشككة، أحدق، ألتقط التفاصيل التي ربما لا تلفت الانتباه.

تبدو لي كل الأشياء مختلفة عن رؤيتي لها من قبل. ربما تغيرت النظرة بإحساس الخطر، صنعه القلق والتوجس والخوف وفقدان التركيز وكثرة التلفت.

في داخلي توقع شيء ما، لا أعرف طبيعته، أستريب فيما أراه، أو أسمعه، يشغلني الفرار من كل ما يحيط بي، أستدير خلفي، أرى إن كان يتتبعني أحد.

الأرصاد المبثوثون في المفارق والأركان، يلتقطون ما أقوله، وما أفعله، يلاحقون خطواتي، أتفرس الوجوه والأفعال والأشياء، يشغلني البحث عن شخص، لا أعرف من

هو، ولا أين ألتقيه، يستبد بي عجز لا أقوى على مغالبته، تختلط مشاعري، وإن جمدت قدرتي على الحركة، على الفعل.

أتمنى أن أمضي في شارع سليم البشري، أدخل الشقة، هي المكان الذي لا أتصور حياتي بعيدة عنه، أخلِّف كل شيء ورائي، تزول عني قيود ترددي وارتباكي، أتنهد، أستعيد نفسي، ألوذ بنوم هادئ في سريري.

أراجع نفسي، أفكاري، وما اتخذته من مواقف، أتساءل عن قيمة ما حدث وجدواه، أجدني في موضع المدافع عن ذنب لم أرتكبه.

لم تعد الكلمات التي أريد التعبير بها تسعفني، يأخذني التلعثم والارتباك، تتباعد الحروف، وتختلط، تعوزني القدرة على التوضيح، أو أتصور نفسي كذلك.

أسرع في خطواتي، لا أنظر إلى أحد، لا أتلفت.

لو أنهم أفلحوا في إدانتي، هل أعاني ما قرأته، واستمعت إليه، وشاهدته، من القسوة التي تضعني على حافة الموت، أو تقتلني.

أنا لم أرتكب شيئًا يخضعني للمساءلة.

لماذا أفر من المواجهة؟!

السير إلى مقام المراد

تابعت — في جلستي على قهوة الصيادين — طائرةً متعددة الألوان. ربما أطلقت من سطح بيت على طريق كورنيش الأنفوشي، واصلت طيرانها إلى ما بعد قلعة قايتباي، ثم اختفت في الأفق.

زاد ترددي على قهوة الصيادين كأنه من مألوف حياتي اليومية، تختلف قعدة القهوة في الصيف عن قعدة الشتاء، تتناثر الطاولات والكراسي حتى نهاية الرصيف، بينما يلوذ الرواد، إلى الداخل، بالشتاء، أو تغلق القهوة أبوابها.

أغادر البيت بدون إفطار، أخطف — في الطريق — ساندوتشًا، حتى لا يسرقني وقت القعود في الشقة، أخشى حركة النهار، أغلق باب البيت الخارجي جيدًا، لا يدخل من يدعي سببًا، محصل الكهرباء، أو الغاز، أو المياه، أنطرح على السرير متعبًا، لا أقوى على استبدال ملابسي، ولا أنشغل — كما هو حالي خارج البيت — بالتلفت، يأخذني النوم في اللحظة التالية لإسناد رأسي على الوسادة.

لا يوجد مكان آخر في العالم يشعرني بالطمأنينة، بيت الصوفية يحتويني بالسكينة والدفء، لكنني لا أملك الحركة إلا بإذن، أعيش مع مريدي الطريقة، أتحرك بما لا يؤذي مشاعرهم، في بيتي أفعل ما أشاء، أشعر أني أمتلك ما حولي، لا أحد يشاطرني امتلاكه، أنزع ثيابي، أغني، أصفِّر، أقرأ، ربما أطلْت التمدد على السرير، يداي معقودتان خلف عنقي، وعيناي تنظران إلى السقف، تعزلني الحوائط عن الدنيا خارج البيت، تهدأ نفسي في هدأة الليل، أنعزل حتى بدايات الصباح، يا دوب أبدل ثيابي في الشقة، أمضي من شارع سليم البشري حتى ميدان الأئمة، أخترق شارع محمد كريم إلى نهايته، ومنه إلى طريق الكورنيش، يتملكني التألم — وأنا أتنقل بين الأمكنة — لحاجتي إلى كوب شاي بالحليب، مما كانت تعده أمي كل صباح، أرشفه على مهل، أنصت إلى كلماتها، مثلما تصيخ

السمع لكلماتي، أجلس في الموضع الذي اخترته بالقهوة، حفظت سحن الرواد وأسماءهم وتعليقاتهم وتعبيراتهم ونكاتهم، أعرف حتى شغلهم في البحر، والمهن التي تتصل به، اختلاف الزي بين كل مهنة وأخرى، المشروب الذي يستعيده «الجرسون» إن لم يكن على المذاق المطلوب، صنعوا صورة القهوة في توالي الأيام، تسبقني إليها مشاعر الألفة وطلب الصداقة.

تنبهت على لكزة الرجل ذي البدلة الصيفية، دفع لي ورقة في حجم راحة اليد، تبعها بالقول: استدعاء للسؤال من نقطة الأنفوشي.

تحركت — في داخلي — الهواجس والأسئلة المحيرة.

قال الرجل وهو يعبر إلى الناحية المقابلة: ستعود قبل أن يبرد كوب الشاي.

لكنني تأخرت في العودة.

مضت الدقائق الخمس، تلتها دقائق، وساعات، دون أن أعرف ما يجري خارج الحجرة الخالية إلا من قطع أثاث قديمة، قليلة، تلاغط الأصوات — في الخارج — لا يبين عن كلمات محددة، نداءات وزعيق وشتائم وعبارات متوسلة.

الحجرة في نهاية المبنى ذي الطابق الواحد، كأنه — في الداخل — طابق أرضي من بناية متعددة الطوابق، في الواجهة قاعة مفتوحة، مستديرة، بها مكتب خشبي مستطيل، وعلى الحوائط إطار لآيات قرآنية، وعبارة «الشرطة في خدمة الشعب»، ولوحة خضراء خالية، إلى اليمين طرقة طويلة، على جانبها الأيمن غرف متلاصقة، يقابلها سور حجري، مطلي باللون الأبيض، تترامى من فوقه رائحة حلقة السمك.

لم يزايلني الشعور بالارتباك، والعسكري يسبقني إلى القاعة الفسيحة، تطالعني — من وراء المكتب — ابتسامة مرحبة من الضابط ذي البشرة البيضاء، والعينين البنيتين اللامعتين وخصلة الشعر المتهدلة، والنجمتين على كتفيه.

أومأ لي من وراء مكتبه.

جلست في الكرسي المقابل.

وهو يدفع لي سيجارة: شاي؟

لعقت شفتيَّ، أخفف من شدة جفافهما: أنا لا أدخن.

– والشاي؟

ظللت صامتًا، خشيت أن يفضح صوتي ما أعانيه.

توقعي أن يسأل عن السر الذي أخفيه، حيرتني نظرته، تظاهرت بالشرود، حتى لا يفطن إلى ما أحاول مداراته، أعطيت لشيخ الطريقة وعدًا، فلن أخذله.

أذهلتني كلمات الضابط عن ثرثرات المقاهي، ملصقات الجدران، كلمات الهواتف المهددة، الرسائل المدسوسة في الصناديق، وتحت أعقاب البيوت والدكاكين، بدا ما رواه أكبر من عدم الفهم والدهشة.

قلب صفحات من النوتة الصغيرة في يده، وقرأ: أنبل الأفعال حين يفتدي المرء الجماعة.

وحدجني بنظرة متسائلة: هل هذه كلماتك؟

تلعثم لساني بالارتباك: مجرد خاطرة.

– مملاة عليك أم أنها من مخك؟

– هذه خاطرة شخصية، كنت سأكتبها على الفيس بوك.

كلمني عن الكتابة على الحوائط والجدران، وفي دورات المياه، وضع المنشورات في صناديق البريد، جذبني من ياقة السويتر، ودنا بوجهه: من حقك أن تناقش وتعترض، لكن الانخراط في تنظيم يستوجب المساءلة!

ونطق وجهه بنفاد الصبر: لو أننا تركناك تفعل ما تشاء، فلن نضمن انتشار ما تدعو إليه بين الجميع.

لماذا لا يقتحمون شقتي؟ يغيبونني في السجن؟ يقتلونني فينتهي الأمر؟ ما السر الذي يملي عليهم تواصل حياتي؟!

لم يحاولوا تقديمي إلى المحاكمة التي تسربت من أفواههم كشائعات، وإن لاحظت تقليبهم في الشقة، دون أن يجدوا ما يريدون.

بدا الشيخ صالح جاد الرب — في وقفته على باب الحجرة — كأنه رضوان حارس الجنة، زغردت — في داخلي — مشاعر الفرحة والطمأنينة.

أمسك معصمي، وخطا إلى خارج المبنى: تعال.

تنقلت نظراتي بينه وبين الضابط في القاعة المواجهة، زالت حيرتي بهزة رأسه المحيية وهو يمضي إلى الخارج.

قطع الصمت في انحناءة شارع قصر رأس التين إلى شارع محمد كريم: وقعت على ضمانتي بأن تبتعد عن طريق المرأة.

هتفت بالذهول: أي امرأة!

غمغم: الأنفوشي!

كتمت ما حدث في الأنفوشي لأشهر طويلة، لم أبح بما حدث للشيخ، ولا لأحد من الطريقة، قدَّرت التأثيرات، فطال صمتي.

– أنا لا أعرفها، لا أعرف عنها أي شيء!

وهو يهز رأسه: أعلم.

– لماذا وقَّعت إذن؟!

– حتى لا تظل في الحبس.

ولوَّح بيده: لا تضع نفسك في المخاطر، نحن لا ندري من أين يأتي الخطر! وأخرج من جيب الصديري ساعة بكاتينة، نظر فيها، وأعادها: هل تتردد على مجالس الشيخ محسن الأشعل؟

مست بالتوجس في أعماقي: هو مريد في الطريقة.

اعتدت رؤيته على باب دكانه، أسفل جامع الشيخ إبراهيم، بين سوق راتب وشارع الميدان، على الجانبين أجولة العطارة، القمح والأرز والذرة والشعير والسمسم والردة والعليق والفول المدشوش.

أعبره بنظرتي، لا أتثبت من ملامحه، ولا أحاول بدأه بالسلام، ألاصق الشيخ صالح جاد الرب في مقدمة نصف الدائرة حول شيخ الطريقة، بينما يختار لجلسته موضعًا بالقرب من الباب الخارجي.

مرة وحيدة، قصدني في مشوار إلى رأس التين، طلب أن أسلم خطابًا إلى الشيخ كامل حفظي إمام جامع محمد كريم برأس التين، حدد لي المكان، والطريق إليه، حدد لي حتى وقت مغادرة بيت الصوفية.

تخلل ذقنه بأصابعه: أعلم ما قلت.

لم أعرف ما أقول، فسكت.

وهو يمسد رأسه: وثقت بك فقربتك مني.

وثبت نظارته فوق أنفه: تثمين الذهب مهنتي!

وأنا أغالب الحيرة: لا أفهم شيئًا.

– ستعرف كل شيء في حينه.

وداعب شحمة أذنه: ما تعانيه الآن صراط إلى الصواب أو الخطأ.

وهز إصبعه: اقصر حضورك على بيت الصوفية.

الوحدة حياتي

نهض الرجل من كرسيه في قهوة الصيادين، توقفت خطواته أمامي، وقال: الملف لم يغلق.

ومضى.

شغلني الملف بما لم أعهده في نفسي، أخذتني الملاحظات والتحذيرات والمطاردات التي لا تنتهي، لم أقرأ ما في الملف، أدركت قيمته من نقل الشيخ جاد الرب انشغاله به إلى شيخ الطريقة.

وعدت الشيخ بالكتمان، فلا بد أن أحافظ على الوعد.

أعاني الشعور بالوحدة والعجز والقهر، شعورًا لم أعرفه من قبل، لا أجد من أحدثه، أو من يفتر حوارنا في بدئه، تتلاحق في رأسي الأفكار، تتزاحم الهواجس والخيالات، تتشابك، تختلط، يداخلني الضجر دون توقع، أتكلم بما أتبين — فيما بعد — سخفه، أنفر من القعدات والرفقة والأسئلة والملاحظات القاسية.

تصاعدت أفعال المطاردة، لا أنظر إلى الوراء، حتى لا يصدمني ما لا أتوقعه، لكثرة سيري في الشوارع، غابت النظرات المتسائلة، والمتابعة.

ظللت مذهولًا، غير قادر على فهم ما يدور حولي.

عدا موعد الحضرة، عقب صلاة العصر، فأنا أغادر بيت الصوفية، هذا هو موعدي في البيت، أمضي الوقت في شوارع بحري، إلى ما قبل انتصاف الليل. أعود — متعبًا — إلى الشقة.

تبينت — وأنا أخترق الشوارع والحواري — أن بحري ليس بالاتساع الذي كنت أتصوره: البحر، الكورنيش، الشوارع المتوازية: محمد كريم، فرنسا، الميدان، تميل — في

انحناءاتها — ناحية ميدان المنشية، لافتة الجزيرة الضيقة، قبالة القهوة التجارية: حي الجمرك يرحب بكم، يمضي الطريق إلى محطة الرمل، وأحياء الإسكندرية الأخرى.

أتصور — في وحدتي — ليل الإسكندرية: هدير الأمواج في ظلمة البحر، نصف دائرة أضواء الكازينوهات والمحال التجارية في طريق الكورنيش، زحام شوارع وسط البلد، أغادر بيت الصوفية بعد رفع أذان العصر، لا أترك بيت سليم البشري حتى مطلع الصبح.

أَلِفت الخروج في لحظات النهار الأولى، تخلو الشوارع إلا من تناثر تلاميذ المدارس، وباعة الصحف واللبن، وعربات الفول المدمس، وعربات الزبالة، وصف الكراسي والطاولات على أرصفة المقاهي، وتثاؤب الترام في بدايات مشاويره …

أعود إلى البيت آخر الليل، أدخله، وأغادره، دون أن ألفت النظرات ناحيتي، حفلت دنياي بالعزلة والوحدة والظلمة والظل والتخفي والحذر والترقب والانتظار والأشباح والأطياف والكوابيس والتكتم والفزع.

وقتي — في بيت الصوفية — من الخامسة صباحًا إلى صلاة العصر، أجلس بالقرب من الشيخ صالح جاد الرب، ألبِّي — بواسطته — طلبات شيخ الطريقة والمريدين، في مشاوير إلى شارع الميدان والمنشية والعطارين.

لو أن الشيخ صالح دعاني إلى لزوم بيت الصوفية ما غادرته، ألوذ بدفئه، والبعد عما يخيفني، العبادات وأعمال الخير والقيام والتهجد والصيام والنوافل وتمني عفو الله، يحل الأمان بالصمت، صمت سادر تعمقه التسابيح، والقراءات الخافتة، والأصداء المترامية من الطريق.

أفرُّ — معظم أوقات اليوم — من بيت الأسرة، يشغلني الفرار بلا عودة، أخاف ما لا أعرفه، إذا تملكتني الهواجس، اتجهت — في موضعي — ناحية القبلة، أنفض — بالصلاة — ما يشغل ذهني، لا يبقى إلا الراحة والسكينة.

إن ابتعدت عن بيت الصوفية، يقتحمني الشعور بأني أحتاج إلى شخص ما، صدرٍ أُريح عليه رأسي، أبوح له عما بنفسي.

خلصتني نصائح الشيخ من عيب منعني من مخالطة الناس، كنت إذا دخلت مجلسًا عانيت الارتباك، لا أعرف أين أقف، أو أجلس، ولا من أتجه إليه بالكلام.

أقضي بقية النهار، ومعظم الليل، في الشوارع، أحاول التواري عن الأعين المتابعة، حفظت البنايات والدكاكين واللافتات والمفارق والنواصي.

ما أعانيه — في الفترة الأخيرة — بدَّل علاقتي ببيت سليم البشري، أعاني القلق والإحساس بالمطاردة والخوف والتخبط في الكهوف والمتاهات، أبحث عن مخرج في الطرق المسدودة.

بينما اعتدت العيش في بيت الصوفية، فإن فكرة الحياة المستقرة في بيت شارع سليم البشري لم تزايلني، ترامي جلبة الطريق يؤنسني في الصمت والوحدة.

أجول بنظراتي في الشقة بشعور الاطمئنان إليها، هي المكان الذي أنتمي إليه، أتحرك في الصالة، وما يتصل بها: الحجرات الثلاث والمطبخ والحمام، أنفض الغبار عن الأثاث، آكل مما أعده في المطبخ، أتابع — في شرودي — برامج التليفزيون، أقلب القنوات، مجرد أن تتحرك الصور، وتعلو الكلمات. موضعه في ركن الصالة، على حامل خشبي، تحته جهاز فيديو، ولاب توب، أملأ وقتي بشيء ما. ربما أقرأ رسائل الإنترنت والفيس بوك والواتس آب، أرنو إلى لوحة فوتوغرافية، على الجدار، فوق السرير، لشيخ الطريقة يتوسط — في بيت الصوفية — خواص مريديه، أسحب كتابًا من المكتبة الصغيرة، غالبيتها مما يوزعه العلماء والمشايخ على مريدي بيت الصوفية، أطل من النافذة، أتخيل دعوة أصدقائي، مجالستهم، أقلب الصور والأوراق التي كان أبي يحتفظ بها في كومودينو غرفة نومه، سيره على رصيف ميدان المنشية. ربما الصورة لمصور متجول، جلسته داخل قهوة فاروق، تحت صورة الملك والتاج، يده ممسكة بطائر لا أعرفه، في اليد الأخرى بندقية، كتب خلف الصورة: في كنج مريوط، قفته في مئذنة، لعلها مئذنة أبو العباس، هل كان يعد لرفع الأذان، أو أنه وقف للتصوير؟ استغراقه في قراءة القرآن، في جلسته تحت أول أعمدة صحن ياقوت العرش، من ناحية الباب الرئيس، جلسة أمي وأبي تحت شمسية في شاطئ الأنفوشي، إلى يسار ورش القزق، استعدت نظرات أبي اللائمة منذ اليوم الذي أحاول تناسيه، حرصه على انضباط أقواله وتصرفاته، وتقليدية ملابسه: البنطلون الواسع المثني من أسفل، والجاكت، والقميص ذي الياقة المنشاة. يداخله حزن لرؤية مريض يعاني، يتخيل نفسه مريضًا مثله، إن قرأ في كتاب، أو جريدة، عن أعراض أي مرض، تصوَّر أنه يعانيه.

تخليت عن جلستي في قهوة الصيادين، أتأمل المارة، والزحام، ومسجد «منار الإسلام» أول الطريق إلى نادي اليخت السكندري ونادي الصيد والنادي اليوناني ومعهد الأحياء المائية وقلعة قايتباي، أهالي المحجوزين في نقطة الأنفوشي، يحيطون باللوري قبل أن يقلهم إلى الترحيلة، صيحات النوارس تترامى من فوق القوارب الراسية على يسار المينا الشرقية.

أسرح في المدى.

نظراتي موزعة، قلقة. ربما يأتي الخطر من تجاور الفلايك في مرسى المينا الشرقية، شارع محمد كريم الجانبي، مسجد منار الإسلام، صخب حلقة السمك، تأخذني جلبة إلى سلالم قصر الثقافة، أحدق في الانفراجات ما بين ورش القزق، أعيش الحذر والحيطة والتخفي عن الأعين، لا أجد تفسيرًا لكل ما يحاصرني، غادرت القهوة — ذات مغرب — دون أن ألتفت، تركت لقدمي الخطو في الشوارع، لا أطيل النظرة الملامح العابرة، أخاف فلا تلتقطني عين راصدة.

أنزل الطريق بلا هدف، أخترق الشوارع والحارات والأزقة، بيوت قصيرة متلاصقة، يفصل بينها طرق متداخلة، أفتش في أعين المارة، أتفحص المطلات من النوافذ، والواقفين على أبواب البيوت، والجالسين في الدكاكين والقهاوي، لا أعرف ماذا أفعل، ولا إلى أين أذهب، وإن ضايقتني النظرات المحدقة، أسير في الشوارع نفسها، لكن أسماءها تختلط في ذاكرتي؛ لكثرة سيري المتخبط، امتزجت في أنفي روائح الأمكنة، غاب الشعور باختلاف الرائحة في تلاقي الشوارع، واتساعها، وضيقها، وما إذا كانت تخترق بنايات جديدة، أو قديمة، أو خرائب، تنتابني لحظات من النسيان، وفقد الذاكرة، فسرتها بما أعانيه من الملاحقات.

أول ما يشغلني وأنا أشعر بالأعين الراصدة خلفي: كيف أتخلص من الملاحقة؟ كيف أستعيد نفسي في ظل الهدوء والصفاء والسلام؟

يداخلني شعور بالتوجس، بالخوف، بالقلق، ما لا أعرفه تمامًا، لكنه ليس شعورًا طيبًا، لو أقدر على الابتعاد عن كل ما حولي، أنظر إلى الناس من حولي، المارة والباعة وداخل الدكاكين والجالسين على القهاوي والمطلات من النوافذ.

أعرف أن تأثيرات ما يحدث في حياتي تغيب عن حياتهم.

هل استغرقهم الفرح والحزن والأسى والحب والكراهية والسأم والملل ولقمة العيش، فلا يلحظون ما أعانيه؟

لا أجلس ولا أتحدث إلى أحد، أتعمد السير — كما رويت لك — في الشوارع الفرعية، المطاردة سهلة في الميادين والشوارع الواسعة، يكتفون بالنظرات المتابعة، هو ما يصعب في الشوارع الضيقة والحواري.

عيناي تتحركان بالريبة، تمسحان ما حولي، ينتابني القلق من كل ما يحيط بي، أتصور العداء والكراهية والرفض، يتملكني الإحساس بالمحاصرة، وبالرغبة في أن أحطم الأشياء من حولي، أنهال عليها بما تصل إليه يداي.

يلاحقني التنصت والتلصص، حتى في الأماكن التي لم أكن أعتزم التوجه إليها، غمامة سوداء تغطي حياتي، أشعر أن شيئًا ما يقترب مني، يحاصرني، أتشمم أنفاسه، أكاد أتبين ملامحه.

اقتحمني الخوف لرؤية شاب أشقر البشرة، في يده نوتة صغيرة، وفي اليد الأخرى قلم رصاص يسجل به ما لم أتبينه، وإن بدا أنه يتابعني، ويرصد حركاتي.

هل كتب في نوتته ما يؤذيني؟

أبطأت خطواتي، وتظاهرت بالبحث عن عنوان، ضاقت المسافة بيننا حتى لامست قفاي أنفاسه، اختطفت التونة من يده، ونظرتي تسبق إلى شارع جانبي، تلفه الظلمة.

لم يكن في النوتة — حين خلوت إليها — ما يهمني، مجرد أسماء ثلاثية ورباعية، لا أعرف أصحابها، ولا صلة لي بهم.

لماذا كانت عينا الشاب تنتقلان بين النوتة وبيني؟

لماذا كان يتبعني؟!

هواجس كثيرة، تلح عليَّ، وتطاردني، أعرف أن هناك من يدبرون لكل ما أعانيه، ويقفون وراءه، يترصدونني، يختبئون في مكان، يروننني ولا أراهم، ينتظرون لحظة الانقضاض، أتهيأ لهذه اللحظة، لا أعرف صورتها، ولا كيف تطالعني، لكنني أوطن نفسي على لقائها، لا أعرف من هم، ولا لماذا يتآمرون، وكيف أصل إليهم لأتبين تدبيراتهم، فأقاومها، أنظر — وأنا أسير — بجانب عيني، أتوقع من تثيرني ملامحه.

أزيح جانبًا من الستارة، أنظر من المنفذ الطولي على الشارع، أنظر إلى الجهة المقابلة، هؤلاء الذين يقفون على سلالم مدخل البيت، يتبادلون كلمات تعكس الملامح جديتها، يتبادلون التطلع نحو النافذة، يتملكني الشعور بالشك في النظرات التي تتجه ناحيتي، أراهم في نواصي الشوارع، ومداخل الأبنية، وعلى المقاهي، وفي المساجد، ومحطات القطار، والحدائق. أعبر الرجل ذا البالطو الذي لا يبدله، اعتدت رؤيته مستندًا إلى البيت المتهدم ذي الطابق الواحد، في انحناءة الطريق إلى الحجاري، بدا اختياره للمكان حتى يتابع توجهي إلى بيتي في شارع سليم البشري، وعودتي إليه.

أدخل الشقة، أتلفت، أتشمم رائحة أفتقدها، مغايرة لما اعتدته، أجلس في أي مكان، وظهري إلى جدار، أحدق في السقف والأرضية والجدران، أحرص – قبل ارتقاء السرير — على إحكام رتاج باب الشقة، وعلى إغلاق النوافذ.

الخوف من الأحلام يرافق ذهابي إلى النوم، أعاني اختلاط الأحلام، تواجهني بمن ألتقيهم في الصحو، تقتحمني بالكوابيس، تجهدني محاولة الإفاقة.

استغربت السؤال: هل تخاف؟

وجذب الشيخ جاد الرب شحمة أذنه: الخوف هو أخطر ما نواجهه.

وأضاف في لهجة محذرة: أعرف صديقًا إن لم يجد الخوف فإنه يخترعه، يهوى العيش خائفًا.

أتحرك بلا قيد، لكن الشعور بالأسر يسيطر على ذهني وتصرفاتي، يداخلني خوف، لا أعرف بواعثه، كأن شيئًا يتحرك داخلي.

حياتي في الوحدة تسلل إليها الخوف، لا أخاف شخصًا ولا شيئًا، خوف مما لا أستطيع تحديده، أحرص — حين مغادرتي البيت — أن أحمل على كتفي حقيبة قماشية، بها غيارات لقميص، وملابس داخلية، لا يخطر في بالي أن أطيل البقاء في مكان بما يلفت الانتباه. لم يكن المأوى هو ما أبحث عنه، لا أتصور نفسي بعيدًا عن الشقة التي ولدت، ونشأت، فيها.

أتطلع إلى النوافذ المطلة على طريق الكورنيش، مداخل البيوت، أبواب المحال المفتوحة، جلسات القهاوي، الأشجار والنخيل والمقاعد الرخامية قبالة كورنيش البحر، يتملكني الخوف عند اقترابي من تقاطع أو مفارق أو شارع جانبي، أعاني التوجس من كل ما حولي، أبحث عن النظرات التي تتبعني، ترقب تصرفاتي من مواضع خفية.

أعرف أن شخصًا ما يراقبني.

لا أخطئ في قول أو تصرف يلفت عينًا راصدة، أواجه ما لا أملك إجاباته من الأسئلة، من يرفض المسايرة، فإن الخطر يلاحقه، أرفض شراء المعلبات حتى لا يقتلني التسمم، أغمس الخضر في البرمنجنات لضمان نظافتها، حتى الثياب أحرص على غسلها، وكيها، فلا تنقل السموم، أحتمي بالملاقف للفرار من سخونة الهواء، الأماكن الخالية بين التقاطعات والمفارق تأذن لتلاقي تيارات الهواء، فيلطف الجو.

إذا تملكني التعب، فإني أميل إلى قهوة قريبة، ليست أي قهوة، أحرص أن تفصل أبوابها بين الداخل والطريق، حين أدخل مكانًا، فإن التلفت هو أول ما أفعله، أستكشف طبيعة المكان وتفصيلاته، أجلس إلى طاولة بعيدة عن النظرات المقتحمة، والأسئلة، أطلب شايًا بالحليب، وأسند رأسي إلى الكرسي، أتظاهر بالشرود فيما لا أعرفه.

ترامى صوت خشخشة من موضع قريب، التفتُّ بالخوف، رمقني القط بنظرة متوجسة، ثم عاد إلى نبش القمامة.

كن معي ... لا تفارقني

ملت من شارع محرم بك، إلى شارع جامع الحضري، الموازي لشارع الإسكندراني، طالعني — في اليسار، فوق الهضبة الحجرية — مبنى كلية العلوم، البيت في نهاية الشارع الترابي الضيق.

ضغطت الجرس بإصبعي، فانفتح الباب المغلق.

مرور سنوات لم يبدِّل كثيرًا في ملامح أحمد العشري، حتى رأسه غلب فيها السواد على البياض، لكن البطء في الحركة، يشي أن طاقته لم تعد تسعفه.

لم يعد لي مكان أذهب إليه، أخشى التردد على الشقة، أعاني توقع المطاردة، والخطر، لا رغبة في أي شيء سوى البعد عما حولي، الاختفاء من هذا العالم: العيش والتنفس والنوم والصحو والسير في الشوارع وتأمل الواجهات واللافتات والمارة والقعود على القهاوي والمطلين من النوافذ.

دقائق هي التي أستطيع فيها الجلوس، أو الوقوف، في مكان.

يداهمني القلق، فأبتعد، أُكثر من التلفت لأرى ما إذا كان أحد يتبعني، أعاني مشاعر الارتياب والشك وفقدان الثقة.

تملكتني الفكرة، فأزمعت أن أنفذها.

لو أنه يتوسط لي، فأعود إلى العالم الذي ألفته، لم أفعل ما يعرضني للمساءلة والعقاب، لماذا طردت من الشونة، بلا ذنب يدينني؟

شغلتني الأسئلة: عندما ألتقيه، هل أبادره بالكلام، أو أنتظر حتى يبدأ كلامه؟ إن تكلمت، ماذا ينبغي أن أقول؟ كيف أعبر عما في داخلي دون أن أضايقه؟

يقتلني الشعور بأني بلا أصدقاء، وأني وحيد، يشغلني الميل إلى الكشف عما بنفسي، أحتاج إلى النصيحة، أو حتى اللوم.

لم يعرفني، بدا كأنه نسيني.

وأنا أستجمع نفسي: طاهر حسين ... طاهر حسين فتح الله.

شف صوته عن الوهن: في شبابي كنت — لأسباب أعرفها — أعاني كثرة النوم، الآن أعاني قلَّته!

قال لملاحظتي عن شروده: السن!

هل تتوه ذاكرته؟

ذكرته بأيام عملنا في شونة ستاني، يده تمر بالرمانة، تسقط سقاطة التورناطة، يعلو صوته بالوزن، أسجله في ورقة بيدي، يحمل العتال الجوال إلى البلوطات القريبة، ويضع غيره.

تبدلت وقفتي — بإحالته إلى المعاش، جلستي خلف المكتب المعدني المترب، في ركن الشونة، أسجل أرقام الصادر والوارد، حتى الثالثة عصرًا.

لخص — في كلمات متقطعة — حياته، منذ أحيل إلى المعاش، ألف التردد على القهوة العالية بميدان المحطة، يقضي فيها ما كان يحتاجه وقت العمل، يقرأ الجريدة، يجالس الرواد، يتأمل حركة الطريق.

التقط شعرة نافرة من فتحة أنفه: تشغلني النهاية، عدُّ ما تبقى من الأنفاس.

وأسند أصابعه على الجريدة أمامه. ربما لإخفاء رعشة يده: العمر تقدم بي، وما هو قادم أقصر مما فات، لاحظت أن الأفكار تستغرقني عندما أكون وحيدًا، أحرص على رؤية الناس.

وأومأ إلى الفراغ: في سني المتقدمة لا معنى للخوف من الموت.

وهمس كأنه يكلم نفسه: أنا لا أخشى الموت، بل أخشى حساب الملكين.

أزمعت أن أختصر ما سأرويه، لكن الكلام سرقني، شعرت أني بحت بأكثر مما ينبغي، هزمتني الرغبة في البوح، تكلمت بما يشبه الفضفضة، لا أتدبر الكلمات، ولا وقعها، ولا إن أصاخ سمعه لي، واصلت الحكي حتى أطل الملل من عينيه، حاولت أن أتخلص من المشاعر التي تملكتني تمامًا، وقيدت حركتي، لم أستطع فعل أي شيء، لا المقاومة، ولا حتى البحث عن الأذن التي تصغي.

لجأت إليه كي تتبدل أحوالي، لا أظل — كما أنا الآن — في وضع الباحث عن النصيحة والملاذ، لا أهمس بالتذلل، أملي بثقة الذي يعرف ما يريد.

لو أنه توسط لي. ربما عدت إلى حياتي القديمة، يقتصر تنقلي بين الشونة والبيت.

في نبرة مداهنة: أدين لأستاذيتك بأفضال.

– مضت تلك الأيام، أحتاج إلى عون الآخرين.

وهز رأسه: أمامي المعاش، تركت العمل وملفي خالٍ من الملاحظات.

استوقفتني العبارة، تأملتها، خشيت ألا أقول ما اعتزمت قوله.

أسلمت نفسي لموجة صمت.

وهو يعتصر جبهته براحة يده: شاغلي الآن أن أقضي بقية عمري بعيدًا عن الإزعاج والمشكلات التي لا تخصني.

وأنا أغالب الدمع: يصرون على اتهامي بما لا أعرفه!

حين أعاد ما قال، عرفت أنه لم يسمعني.

حدق في ملامحي بإشفاق: ألم تتكلم يومًا بما تؤاخذ عليه؟

لم يكن أمامي — للبعد عن التصورات القاسية — سوى أن أحتفظ لنفسي بالسر الذي لا يعرفه أحد.

– نحن نؤاخذ بأفعالنا وليس بما نقوله أو ننوي فعله!

استعصت المعاني، لم أجد ما يسعفني من الكلمات، استطردت: ربما لي آراء في مشكلات نعيشها.

وشى خفوت صوته بالإجهاد: ليتك تحتفظ بأفكارك لنفسك.

ثم وهو يتهيأ للنهوض: يصعب أن أفعل شيئًا لأجلك ما لم تعترف.

– بماذا؟

– لو أني أعرف ما سألتك!

– هل أعترف بما لا أعرفه؟

وسم صوته بالحسم: راجع ذاكرتك.

ستر الحال

عرفت أن قدومهم إلى الشونة طرف الحبل الذي سيحيط بعنقي، تغيبت عن الشونة دون إذن، لم أعد أستقل الأوتوبيس الذي يخترق الكورنيش إلى ميدان محمد علي، ثم شارع السبع بنات، إلى الورديان، تطالعني شونة ستاني بين صفوف الشون المتقاربة المطلة على الدائرة الجمركية.

بدا الشيخ صالح جاد الرب كأنه في انتظاري قبل أن يصحو النهار.

عاود القول: أنت مسئوليتي.

أدركت أنه يعرف ما جرى: التهم التي لا تنتهي، والمطاردات المتلاحقة، والحبل الذي التف حول عنقي، فلا أقدر على التنفس.

لا أعرف المرض الذي صحب أمي إلى الموت، كنا نعجز أمام تبدل مشاعرها وتصرفاتها، والكلمات التي تفاجئنا بها، معرفة إن كان مزاجها رائقًا أم متعكرًا، لا ندرك ما حدث إلا بعد أن يطالعنا القول أو الفعل، تعاني اختلال اللحظات، تميل إلى الحدة، ثم إلى المباسطة، يتداخل البكاء في ضحكاتها، دموعها على طرف عينها، تبكي بسبب، وبدون سبب، يتلاشى انبساط ملامحها في التوتر، تحدث نفسها بصوتٍ عالٍ، كأن هناك من يستمع إليها. ربما غلبها انفعال، تصيح وتشتم وتهدد، تداهمها حالات إغماء، تطلق الصرخات، ويعروها تشنج.

زادت من ترددها على أضرحة الأولياء ومقاماتهم، امتلأت حياتها بالأحجبة والتمائم والرقي والتعاويذ والأعشاب والطب النبوي والعقاقير وإطلاق البخور.

أرقبها خلسة، أبحث في ملامحها عما تحاول إخفاءه.

نحيفة أقرب إلى الهزال، نظراتها تائهة، لا تستقر على شيء، دائمة الهمس لنفسها بما لا نتبينه، ترافق كلماتها إشارات باليدين، وتعبيرات بملامح الوجه، ثمة شعيرات حمراء

دقيقة تشابكت في بياض العينين، أحاطت بعينيها المرهقتين هالتان من السواد، رفعت شعرها إلى أعلى، كومته خلف رأسها، يقتصر ما ترتديه على الفساتين ذات الأكمام الطويلة، المحكمة إغلاق الصدر.

تكررت خلافاتهما، يترامى من الغرفة المغلقة زعيق شجار، لا أستطيع التعرف إلى مفردات كلماته، لكنه حرص، مثلما حرصت هي، ألا تبلغ معاملة أحدهما للآخر حد الإهانة، ألفت كلماته الملمزة، تشيح ببصرها، وتستغرق في الصمت.

تكررت شكواها من حموضة في المعدة وقت الليل، لم تعد تتناول العشاء، لكن الأعراض ظلت على حالها، عانت آلامًا في المعدة، ورائحة كريهة في الفم، وميلًا للقيء، إذا اتجهت إلى دورة المياه، فاجأها التبول أثناء سيرها، لا تستطيع منعه.

تبدلت معاملة أبي لها، أدرك أنها مريضة، وتحتاج إلى الرعاية، تنعكس تصرفاتها وصراخها في عينيه تألمًا دامعًا.

صحت — ذات صباح — على كثرة التقيؤ، عجز الطبيب في مستشفى رأس التين عن إنقاذها، وإن فسر أبي موتها بدم الترسة الذي تذهب إلى حلقة السمك — قبل الصباح — لشربه، أرضية العربة الملوثة تصاعدت بالدم إلى فمها المفتوح.

تبدلت — من يومها — حياة أبي.

أحيل — بتأثير رطوبة البحر على صدره — إلى المعاش المبكر من إدارة التفتيش البحري، تتولى تفتيش أية سفينة تدخل البوغاز، أو تغادره. لزم الإقامة — معظم الوقت — في بيت الصوفية بشارع الخضري، كأنه يعد نفسه لحياة قادمة، لا يكلمني عنها، ولا أعرفها. إن ثقل عليه الصمت، فتح المصحف، واستغرق في القراءة، لا ينزل الطريق إلا لأداء الصلاة في جامع ياقوت العرش، أو المرسي أبو العباس، يعبر قهوة أنح بنظراته، يكتفي أمام الدكاكين — دون التفات — بإلقاء السلام، يتبدل الحال في بيت الصوفية، يتلو القرآن، يقرأ الأوراد والأحزاب، يؤذن للصلاة، يلبي احتياجات الشيخ صالح جاد الرب والمريدين من مكتبات الموازيني والعطارين، يشرف على عم حمود في تنظيف البيت.

لم يعد أبي يناقش تصرفاتي: ما إذا كان عملي في بيت الصوفية مؤقتًا، أم أنه جملة في فقرة طويلة.

كان يرسلني إلى البيت رقم ثلاثة في شارع ابن الطفيل، أخلف ميدان أبو العباس إلى شارع الأباصيري، أميل إلى شارع ابن الطفيل، في نهايته طريق الكورنيش، يستقبلني — على باب شقة الطابق الثاني — رجل في حوالي الستين، لا ينزع النظارة الشمسية من عينيه، ويرتدي روبًا من الصوف في الشتاء، ومن الحرير في الصيف.

يدفع لي زجاجة ممتلئة بسائل الراوند قائلًا: سلِّم الدواء للوالد، سلم عليه.
ويغلق الباب.

لما عرض الشيخ جاد الرب أن أساعد في الطريقة، قال أبي في لهجة ترحيب: الشهادة المتوسطة تكفي للعمل في خدمة الطريقة.

التقطت طيف ابتسامة على وجه الشيخ جاد الله: هل العمل في الطريقة وقف على محدودي التعليم؟!

وهز سبابته في تأكيد: بيتنا لا يستقبل إلا المتعلمين، الذين يمتلكون الوعي. الجهلة — حتى لو نالوا أعلى الشهادات — قد لا يحفظون عهدًا، ولا يؤتمنون على سر. للطريقة عهدها وأسرارها.

عرفت أن أبي أراد إنقاص فترة تعليمي، فتقل أعباؤه المالية، العمل في الطريقة حجة، أراد بها أبي مداراة الضائقة التي فرضها الإنفاق على علاج أمي، وعلى مواصلة علاجه من الربو، يعاني تأثير الرطوبة على صدره، فهو يتنفس — من فمه المفتوح — بصعوبة، يشعر — لأقل مجهود — بالاختناق، يكثر من توسيع فتحتَي أنفه، ويستنشق الهواء بعصبية، يضع ورقة جريدة بين الفانلة الداخلية والقميص، ليمنع السعال الذي يمزق صدره، اعتاد الأزمات الربوية، تداهمه، تدفعه إلى طلب نسمة هواء، تعلو نوبات السعال، يتغير وجهه كأنه اصطبغ بالسواد، تتقلص ملامحه، أجري إلى صيدلية الإسعاف. أعود إلى البيت ومعي مسعف، يحقن أبي بأدرينالين، ذلك هو الدواء الذي كان ينقذه من أزمة المرض، بالإضافة إلى دواء آخر هو الإفدرين، لا أدري إن كان موجودًا، أم أقصته أدوية أخرى.

فتحت الباب للطرقات.

قال لي مريد، أعرف سحنته، وإن لم أعرف اسمه: والدك بعافية.

داخلني انقباض: هل هو الموت؟

في زيارتي الأخيرة لبيت ابن الطفيل، نبهني الرجل الستيني إلى خطأ اعتماد أبي على دواء وحيد.

– إذا لم يحدث تقدم فلا بد من طبيب.

وجد الشيخ صالح جاد الرب في ميتة أبي كرامةً، يغبطه عليها: تمدد أبي — قبل أن يؤذن لصلاة الجمعة — لصق حائط القاعة في بيت الصوفية. لم يرد على نداءات إيقاظه، هزه الشيخ، ثم رفع عينيه بالتأثر: مات؟

سألني الشيخ إن كنت سأكتب نعيًا — كعادة أهل الإسكندرية — يُطبع، أو بخط اليد، تُلصق نسخ منه على أبواب البيوت، وجدران الدكاكين، وفي مداخل القهاوي، والأعمدة

الخارجية للمساجد والزوايا، والأماكن التي يتردد عليها الناس: حلقة السمك والوكالات والبنايات الحكومية داخل الحي.

رفعت رأسي من على الورقة الخالية: في البيت ورقة نعي أمي.

– بدِّل اسم المتوفى ... أقاربك لن يتغيروا!

تبينت أني أعيش في بحري بلا أقارب. لم يسألني الشيخ عن أخوالي في دمنهور، وأعمامي في محرم بك. الزيارات المتباعدة لم تتح للقرابة تواصلها.

قال في لهجة مواسية: الفراق مؤلم، لكنك يجب أن تهنأ لوفاة أبيك يوم الجمعة؛ اتَّقى فتنة القبر.

حاولت أن أتكلم، لكن الكلمات اختنقت في حلقي.

مسح بيده على رأسي، وقرأ آيات من القرآن.

رفع صوته بما لم يعهده المريدون: أنت مسئوليتي.

وضرب على جبهته كالمتنبه: هل لديكم مقبرة؟

دُفنت أمي في العامود. زرتها مع أبي مرات كثيرة.

سنذهب معك.

اكتسبت الوفاة معناها الجميل من أنها أعقبت صلاة الجمعة في أبي العباس، وسبقت صلاة العصر في بيت الصوفية.

عرفت الطريقة في أعداد المريدين التي صاحبت الشيخ جاد الله من البيت إلى المقابر، بِدل وجلابيب وأفرولات وسحن حزينة، فعلوا كل شيء، بداية من استخراج تصريح الدفن حتى إغلاق المجاديل. يشهد الله بما هم عليه من تكاتف وتكافل ومودة ورحمة. يحرص الشيخ على تبادل الزيارات والخدمات، وتنمية الصداقات الشخصية، وحصول ذوي الحاجة على الأطعمة والكساء والنفحات المالية. لا تقتصر الحضرات على بيت الصوفية، تنتقل إلى المساجد والتكايا والزوايا وأضرحة أولياء الله. ربما شاركت الطرق الأخرى مناسباتها المختلفة.

أيقظني من الشرود قول الشيخ جاد الله، وهو يمسك بساعدي: هيا بنا!

لم ألحظ حتى إن كان شيخ الطريقة شارك في الجنازة. أعرف زهده، وتفرغه لله، وهجرته إليه. هو شيخ الطريقة، قطبها، يليه الأبدال، فالأوتاد. جاهد النفس، حاربها بالجوع والعزلة والسهر، والزهد في الدنيا، والانقطاع عما تزينه العينان للنفس، فتتمناه. لم ينتقل من مقام إلى آخر، حتى بلغ الكمال في المقام الأول.

حضرة الطريقة ليست هي الحضرة الوحيدة التي يجلس فيها الشيخ، الحضرة الكبرى، القائمة والمستمرة، هي حضرته في معية الله، الحضرة الإلهية لا تقتصر على زمان ولا مكان، إن استغرق الشيخ فيها فإن من حقه — ومن واجبه — أن يبتعد بكلِّيته عما سواها. الخلوة تعينه على تلقي المدد الرباني، والفيوضات الغيبية، والأسرار، أوقاته عامرة بالطاعة والذكر، والإكثار من الاستشهاد بالقرآن، وأحاديث الرسول، والموازين الشرعية، وتفاسير العلماء، وأدلة العقل. والرنو — بالبصيرة — إلى الملأ الأعلى.

لم يعد شيخًا للطريقة، ولا شيخًا للوقت، هو وليٌّ عظيم المكانة، تنقَّل بين كل المقامات، حتى وصل إلى مقام الفناء عن ذاته وإرادته. بقي بالإرادة الإلهية.

فكرت — وأنا أعيش الوحدة — في ترميم شروخ الشقة، وإعادة الطلاء، وتجديد الأثاث، ونقل غرفتي المطلة على شارع سليم البشري إلى غرفة أبي في الناحية القبلية.

بظَّت الكتب — بعد وفاة أبي — خارج حجرتي، تناثرت في أرجاء الشقة. أضع الكتاب كيفما اتفق، تتعدد الأمكنة بتعدد الكتب: الكومودينو جوار السرير، الكراسي، على أرضية غرفة النوم، طاولة السفرة. ربما نسيت في الحمام كتابًا، شغلتني قراءته.

نسيت — بتوالي الأيام — ما استغرق تفكيري، وأهملت الأمر.

تعدَّد تنقُّلي بين أكثر من دكان، جميعها لمريدين في الطريقة. أزمع — دون أسئلة، ولا أخذ ورد — أن ألجأ إلى الشيخ صالح جاد الرب، يتوسط لي في عمل جديد.

ثاني أسبوع لعملي في دكان الحاج يونس الترزي العربي بشارع السيالة. تكلم الرجل عن قلة العمل، عدا الأئمة فإن العاملين في مساجد الحي يرتدون — أوقات الصيف — البنطلونات والقمصان، يضيفون — أوقات الشتاء — أردية ثقيلة، القفاطين والعباءات والبدل والجلابيب، غالبية المريدين يحرصون على الجلباب الأبيض، والطاقية البيضاء، والخف المغربي.

كنت ألمح نظراته المحدقة في جلستي الساكنة على باب الدكان.

آخر نهار الخميس، دس في يدي مائة جنيه: أعطيك من رزق أولادي.

استبقاني الشيخ ذات ضحًى. طلب — متعللًا بضعف بصره — أن أعيد على سمعه أحزاب الشاذلية.

قال في لهجة مشفقة: يعجبني خلو قراءاتك من اللحن.

حدق بالتأثر لرؤية الدمع في عيني، وكلماتي الرافضة، وأنا أتراجع أمام يده الممدودة بالنقود ناحيتي.

– هل كنت ترفض من أبيك؟!

عرك الشيخ أذني: لعل ما تعانيه انتقام إلهي على الفعلة التي ارتكبتها.

نظرتي العفوية عادت بي — في صعودي — ثلاث درجات. حسنية فرجت ما بين رجليها الحافيتين، وأهملت انحسار طرف الفستان عن فخذها، تمسح بلاط البسطة أمام باب الشقة.

حلت — في داخلي — رغبة لم أحس بها من قبل، تلبَّستني الجرأة، فككت أزرار البنطلون، استغرقت في النشوة.

أذهلني الصراخ عن نفسي، وعن كل ما حولي. لم أحاول حتى أن أغلق أزرار البنطلون، ما لمحته أمي، بينما أم حسنية تشارك ابنتها الصراخ.

لم أكن — قبل تلك اللحظة — أتصور حسنية في عناق، ولا أتصور علاقة بيني وبينها. خطف نظرتي — بجانب عيني — شعرها الأسود المسدل على كتفيها، وعيناها البنيتان الواسعتان، وفمها الدقيق. لم أتثبت مما رأيت، ولا حاولت التحديق. لم يكن في بالي إلا أنها ابنة جارنا حنفي السنباطي، الموظف الإداري بمستشفى رأس التين. لا أعرف إن كانت تذهب إلى المدرسة، أم تلزم البيت، لا يبدو أنها تنظر ناحيتي، ولا أتعمد النظر ناحيتها، اهتياج لم أعهده في نفسي هو الذي أملى ما فعلت، لم تكن تشغلني العلاقة — قبل تلك اللحظة — بيني وبين أية فتاة، الاستمناء هو رد الفعل لما أراه، ويثيرني.

أخذتني المفاجأة بعد انتهاء ما حدث، مثلما أخذتني في لحظة الفعل، وأخذت أسرتها. انتهى الأمر بإمساك أبي ساعدي، يسبقني خارج البيت، يمضي في الشارع إلى تقاطعه مع الحجاري، أعرف — من بنايات الميدان — أننا نتجه إلى بيت الصوفية، نميل من شارع مصطفى باشا العرب إلى شارع الخضري، حتى بيت الصوفية.

دفعني أبي ناحية الشيخ صالح جاد الرب بيد غاضبة. اصطدمت — في تعثري — بركبة الشيخ وهو مستغرق في قراءة الأوراد.

قال أبي لنظرة المفاجأة في عينَي الشيخ، وهو يفتح فمه ليلتقط أنفاسه: اعذرني يا مولانا. هذا الولد فضحني!

نقل للشيخ ما روته أم حسنية، جاوزت اللحظات صمتها إلى عبارات استدعت الصراخ.

عدل الشيخ عباءته في استعادة لهدوئه: دع الولد لي. هو مسئوليتي.

في اقترابنا من البيت، رأيت العمال ينقلون قطع أثاث من السيارة الواقفة أمام الباب. عرفت أن أسرة جديدة تحل بدلًا من أسرة حنفي السنباطي.

رمقني أبي بعينين مؤنِّبتين، كأنه يتوقع كلامًا، لكنني حولت نظرتي إلى غير اتجاه، وواصلت السير.

استبقاني الشيخ جاد الرب في بيت الصوفية، صحبني إلى موالد آل البيت والأولياء، والنذور، ومحافل الذكر والمديح والإنشاد، وحضرات الشهود والمكاشفة. الساحات والسرادقات والخيام وأكشاك الحلوى وخيال الظل والحاوي وآكل النار ولاعب العقلة والراقص على السلك، وشاعر الربابة والأدباتي وتعليقات الأنوار الملونة والبيارق والأعلام، والرايات الخضراء في زواياها أسماء الخلفاء الأربعة: أبو بكر، عمر، عثمان، علي.

ألقيت بنفسي في بحر المريدين. تعالي الأصوات بالقرآن والأدعية والمدائح النبوية والابتهالات والتسابيح والتهليل والتكبير، والاستغاثات متذللة، منغَّمة، تطوح الأجساد على إيقاع الذكر، شطائر الجبن واللحم والطعمية وأطباق الفول النابت، وقعدات القهوة العربية والتركية والشاي الصعيدي والشاي أبو فتلة والشاي الميزا والكركديه والينسون والحلبة الحصى والعناب والعرقسوس والخروب والماء البارد.

عمقت الموالد شعوري بالرفقة، الشعور بأني أحيا مع أناس أعرفهم، أجالسهم، أحاورهم، تأخذنا المناقشات، آخذ منهم وأعطي. لم أعد أميل إلى الانفراد بنفسي. أخشى البقاء وحيدًا. أجد الطمأنينة في الجلوس إلى الآخرين، أو في مجرد متابعة تطورات حياتهم. أحرص على رفقة مريدي الطرق الصوفية، والمترددين على الساحات، وسرادقات الإنشاد، والحضرات، وحلقات الذكر، والخيام، والشوارع حول المساجد والمقامات.

استغرقتني الصوفية، قبل أن أعرف ما هي الطريقة، ولا متى أطلق عليها هذا الاسم، أخفقت في التعرف إلى الفارق بين طريقتي والطرق الأخرى. عرفت ما لم أكن أعرفه، أو أني نسيته.

علمني الشيخ جاد الرب بعض ما غمض عني، الأداء الصحيح للوضوء، التيمم، الاستنجاء، الاستجمار، وضع اليدين أثناء القيام، تحريك السبابة عند التشهد. حبب لي أعمال الطريقة. أقبلت — بالهمة — على الصوفية، فرقها وأقطابها وتعاليمها وطقوسها وأورادها، وأسماء الغوث والأوتاد الأربعة والأقطاب السبعة والأبدال الأربعين والنجباء الثلاثمائة. حفظت كلام المتصوفة من المقطعات والقصائد والرقائق وغيرها، قرأت إحياء علوم الدين، والرسالة القشيرية، وقوت القلوب، وعوارف المعارف، ودلائل الخيرات. قرأت للمحاسبي وأبو طالب المكي والجنيد والشبلي والبسطامي والجيلاني وبن عياض والكرخي والجنيد البغدادي. أربكني أن قراءاتي لهذه الكتب — وغيرها — لم تفتح لي بابًا مغلقًا،

تنفذ منه حيرتي، وما أعانيه. بدت لي معظم المفردات والجمل غامضة، ويصعب فهمها. أعدت القراءة، ومحاولة الفهم. عرفت المقامات السبع: التوبة، الورع، الزهد، الفقر، الصبر، التوكل، الرضا. تعرفت — بعدها — إلى بقية المقامات والأحوال والمنازل، وإلى الذكر والمراقبة والمجاهدات والرياضات ومحاسبة النفس والزهد، ومعاني الحدود والمعاملات والمحاسبة والخوف والتخلي والرجاء والفضل والكشف والمشاهدة، والأنس والهيبة والنور. أفضل الاختلاء بنفسي، للقراءة، المشاهدة والسماع ربما حدًّا من انطلاقات الخيال.

قضاء أمير المؤمنين.

التقطت عنوان الكتاب في عظة الشيخ حسين الجعفري إمام جامع ياقوت العرش. يعرض لما أصدره الخليفة علي بن أبي طالب في قضايا الناس، ما يتصل بالشريعة، وما ينبثق عن سلوكيات الحياة الدنيا. إذا كانت الحكمة قد تلبست الصبي علي بن أبي طالب، فتوسد فراش النبي قبل أن يصحب الصديق أبا بكر في الهجرة إلى مكة، فإنه الحكيم في موضع القضاء، ثبت في ذهني قول الإمام الباقر: ليس أحد يقضي فيه بقضاء، يصيب فيه الحق إلا مفتاحه قضاء علي عليه السلام. الكثير الكثير من المواقف، جلس فيها الإمام للقضاء، يستدعي، يسأل، يناقش، يتأمل، يصل إلى ما يراه صوابًا، فيبرئ ويدين، ويدعو إلى الكلمة السواء. كشف الإمام — بأفعاله — الحق حتى أقرَّ به المنكر اضطرارًا، ما قد يوسم بالغموض أو التلغيز يُعمل فيه فكره، فيصدر حكمه باقتناع العدل، يكشف حيل المحتالين، حتى يصبح الحق جليًّا، يستنطق بما يكشف الواقع من التفريق بين الشهود، وكتابة تقاريرهم في أوراق، يمنع فيها المدعي من الإقرار، وحثه على الإنكار، كما في الحدود الإلهية، عملًا بالكتاب والسنة، القضاء بما آتاه الله خليفة رسول الله من المعجزات والكرامات، القضاء على مقتضى مصطلحات الشارع، وما يستنبط حكم الشريعة من آثار الطبيعة، والتي صار فيها المدعى عليه مدعيًا ذا حق، وما لا يوجد فيها شيء من العدل الظاهري، لالتباس الواقع في دعوى المدعي، وثمة القضايا التي كان الحكم فيها متعددًا، فلم يعرف القاصرون منها إلا واحدًا؛ قضاء الإمام في امتحان الدعاوى التي لا يمكن إقامة البينة فيها، وبالردود على معضلات الأسئلة، وفي غرائب الخلقة، أقواله في التوحيد والتفسير وفن الكلام، وفي علم الصرف والنحو واللغة والعلوم الأدبية، وعلوم الفلك والجغرافيا والحساب والرياضة والطب والكيمياء والصنعة.

أزاح الغطاء عن المستور من الظلم، والقهر، والمدانين بغير ما أمر الله، ولا بوازع من ضمير، والمختفين بلا سبب، والحقوق الضائعة. المشهد الحقيقي صنعه صمت أصحاب

الحق خوفَ الأذى، لكن توالي الأسئلة الذكية، وحسن التقاط التفصيلات، كشف — بحيل قوامها العلم والوعي والفطنة — كذب العصاة والقتلة واللصوص وذوي النيات السيئة، يواجه الخطائين، فيعترفون.

أعان الناس — بأحكام الشريعة — على التوبة والتطهر، منع تعطيل الحدود، وتضييع الأحكام، وتقديم البينة، وقبول التوبة في الدنيا، وسقوط الحد. قضى بالعفو على من اضطر غير باغٍ، ولا عادٍ، لا إثم عليه.

رده عن سؤال الصديق أبي بكر عن أصل الأشياء: هو الماء؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾، وقوله عن العدل والإحسان: العدل الإنصاف، والإحسان التفضل، وقوله عن معنى ولا حول ولا قوة إلا بالله: إنا لا نملك مع أحدٍ شيئًا، ولا نملك إلا ما ملكنا، فمتى ملكنا ما هو أملك به منا، كلفنا، ومن أخذه منا، وضع تكليفه عنا. تصويبه العديد من أحكام الخليفة عمر، ودعوته إلى مراجعتها. أستعيد قول عمر: عجزت النساء أن يلدن مثل علي بن أبي طالب. لولا علي لهلك عمر.

أهملت ادعاءات الغلاة والمفترين والكفرة وما لا يصدقه العقل. استوقفتني أحكام، استبشعتها، تألمت لمصائر من قضوا بها. اعتدلت كفَّتا الميزان بالصفح والعفو، رفع العقاب عن شبهة الخطأ، تشديد العقاب على من أسرف في خطئه. أعيد قراءة الفقرة مرة ثانية، وثالثة، أطلب الاستيعاب والفهم. ربما اكتفيت بقراءة صفحتين أو ثلاث، تأخذني القراءة إلى حد الحفظ، لا أنسى كلمة واحدة، علقت بالذاكرة آلاف الكلمات والجمل والتعبيرات والمواقف والنصائح والأحكام، تجتذبني المفردات والتعبيرات، فأحاول أن أفهمها. أضع حول المفردات خطوطًا، أحيط الجمل بمربعات ودوائر، أسجل على الهوامش ملاحظات وتعليقات. يخامرني هاجس أني نسيت فقرات مهمة، أعود إلى صفحات قرأتها، ربما تستعيد الذاكرة ما كنت نسيته. فتح الكتاب أمامي عالمًا لم أكن أعرفه، فصوله تختلف عن فصول كتب الفقه والشريعة والمذاهب الإسلامية. أستعيد — بالقراءة — قول الخليفة عمر بن الخطاب — نقلا عن الرسول — أنا مدينة العلم، وعلي بابها، وقول الإمام: سلوني قبل أن تفقدوني.

أغراني الكتاب بالاقتناء. فتح أبواب الذهن على ما كان غير مفهوم، وغائبًا. أزمعت أن أجعله مثلًا لي في مسائل الشريعة والفقه، ذلك ما استندت إليه أحكام الإمام في قضايا الناس.

قلبت في مكتبة بيت الصوفية، ربما التقيت المعاني الطيبة.

نفى الشيخ صالح جاد الرب وجود الكتاب، ترددت على مكتبة أبي العباس المطلة على صحن الجامع، وعلى مكتبة الإسكندرية، ومكتبات شارع النبي دانيال والعطارين.

لازمني إحساس أني سأجد الكتاب في موضع ما داخل مكتبة «إخوان الصفا وخلان الوفاء» القريبة من جامع العطارين. تنقلت بين الأرفف والأركان والزوايا. قلبت الكتب المرصوصة، أو المتناثرة، معظمها علاه التراب، وتأكلت أطرافه. نفضت ما علق من الأتربة، أبحث عن الإبرة في كومات القش.

بدا لي الكتاب كنزًا، وأنا أقلب صفحاته. خلوت إليه ليالي متتالية، عقب عودتي إلى بيت الأسرة، أعدت قراءة ما بدا مستغلقًا، حتى أدركت معانيه، انفسح أمامي عالم حافل بالوقائع، والعدالة التي تراعي الله، والتواريخ، والمكاشفات، والكرامات، والمناقب، والناس العظام. لم يبدل الكتاب ما كنت أعرفه، لكنه وهبني إشارات إلى ما وراء قضاياه، ما يرويه أهل بيت الصوفية من حكايات البعد عن الشريعة، وجرائم الخديعة، والخيانة، والسرقة، والسطو، والاختفاء، والقتل.

وضعت الكتاب أمام الشيخ جاد الرب: قرأته.

تنقلت نظراته بين صفحات الكتاب وبيني. دلت النظرات على أنه أطل من نوافذ كانت مغلقة.

وهو يتفحصني: لماذا اخترت هذا الكتاب؟

وتدلت شفتاه في حيرة: هذا كتاب شيعي.

حاولت أن أرسم تساؤلًا على ملامحي: هل الشيعة غير مسلمين؟

– مذاهبهم مختلفة.

– نحن نضع اسم الإمام على أعلام الطريقة.

همس بلهجة معتذرة: من ينكر مآثر الخليفة الرابع؟

ثم وهو يربت كتفي: لا تتوهم بسعة قراءاتك أنك تعرف كل شيء. المعرفة صعبة.

أحببت بيت الصوفية، وسكنت إليه، تتعالى من حولي أصداء التسبيح والتحميد. لقيت الأمن والطمأنينة والمؤانسة وهدوء النفس، وتلاشى الحذر، كأني ألقيت متاعبي وهمِّي خارج البيت، قبل أن أدخله. أخلع عن نفسي كل ما يضايقني، لا نظرات متابعة، ولا مطاردة، أقرأ، أسأل، أفيد من الآراء والاجتهادات والخبرات، تؤنسني أخوة المريدين، ألزم آداب الوقت، أتأسَّى بالشيخ جاد الرب، أقواله وأفعاله، وقت محسوب بدلًا من السير المتخبط في الشوارع.

تخليت — بعد حصولي على الثانوية العامة — عن استكمال تعليمي الجامعي، أتجه إلى مسار يختلف عما أراده له أبي.

لم أعد أغادر بيت الصوفية إلا للقاء مريدين، أحمل رسائل شيخ الطريقة، ونصائحه، وتوجيهاته، أعود برسائل في أظرف مغلقة. لا يحاول الشيخ جاد الرب فتحها، إنما يسلمها إلى مولانا شيخ الطريقة في حجرته، أو يضعها — مطوية — على مكتبه.

ذات عصر، طرق الباب مريد لا أعرف اسمه، وإن عرفت سحنته. صمت الشيخ عن حديثه إلى نصف الدائرة من حوله. أشار إلى جانبه، وهمس: اقعد!

لما التفت ناحيتي، كنت قد تصورت أنه نسيني: هل تؤدي فرائض الله؟

هززت رأسي بإيماءة موافقة.

سيظلك عرش الله لأنك تنشأ في عبادته.

أردف وهو يتمتم على رأسي بأوراد: حصِّن نفسك بالتزام الصلاة وقراءة القرآن.

ولاحت على شفتيه ابتسامة وليدة: ستذهب إلى وظيفة حكومية. أضمن!

في حضرة المؤانسة

تبينت — بعد نزولي درجات السلم إلى بسطة الطابق الأرضي — أن خطواتي أبطأت أمام الشقة إلى اليمين. اتجهت — بجانب عيني — ناحية الباب المغلق، ونزلت بقية الدرجات.

ومض في بالي ما نفضت رأسي لتناسيه، حتى امتصني هدوء حركة أول الصباح، يعمقه ترامي نباح الكلاب، أخطو خارج البيت، يسبقني التوقع بأن من أخشى لقاءه ينتظرني.

بدا العالم ضيقًا، لا يتسع لي، يحاصرني، يخنقني. أعاني المراقبة والملاحقة والخوف من المطاردة، وترقب الأفعال القاسية.

دفع بي الشيخ صالح جاد الرب إلى مريديه. ظللت — في كل عمل — بالقدر الذي فطن فيه المريد إلى أني لن أجيده.

عبارة الشيخ: أنت مسئوليتي، أضافت المطاردات إلى أسباب اعتذار المريدين عن تشغيلي. أقضي بقية اليوم في الشقة، أو في القهوة، أو أترك لقدميَّ سبيلهما في زحام الشوارع.

تلامس أنفي — في سيري المتخبط — روائح الشقة: العرق على وسادة السرير، ستارة باب البلكونة، قلي السمك من المطبخ، تشتريه أمي من الحلقة، وتقدمه غداء كل جمعة، الغبار المتراكم مكتبة الصالة، تكوينات النشع الطرقة، أدوية أبي، البخور الذي اعتادت أمي إطلاقه في نهايات أيامها.

أعدت الالتفات إلى الشحاذ في جلسته أول الطريق إلى حديقة سراي رأس التين. هل هذا هو الموضع المناسب للتسول؟ هل يلحظ العساكر وجوده؟ ولماذا سكت حرس السراي عن قعدته؟

بدا — في هيئته الحقيقية — عينًا راصدة، لا يشغلها زحام الميدان، ولا النخيل السلطاني، واللافتات التي غطت واجهات العمائر.

واصلت السير، أعيد التحديق فيما حولي. أشعر بالأعين المتابعة في مواقف الباصات، زحام الميادين، النوافذ المواربة، ظلمة مداخل البيوت، لا تغيب عن نظري حتى الأعين التي تحاول الاختفاء، خلف باب، أو جدار، أو شجرة. أعرف أني وصلت إلى لا مكان، فقدت وجهتي. العودة من حيث أتيت — دون أن أخطئ الطريق — هي ما يجب أن أفعله.

ألاحظ — بعد مغادرتي بيت الصوفية — ما يطرأ على الأمكنة من تغيرات: الملصقات الإعلانية الجديدة على الحوائط والجدران، الطائرات الورقية من فوق الأسطح بدلًا من النحلة والبلي في الشوارع الجانبية، تنظيف بالوعات الطرق، استعدادًا لأمطار الشتاء، صيادو السنارة تخلو أماكنهم — لقسوة النوات — فوق مصدات المينا الشرقية، تحول المكتبة الحجازية — أول شارع الميدان — إلى دكان للفاكهة، بائع الصحف — على ناصية شارع صفر باشا — يضيف بيع التسجيلات الصوتية وشرائط الكاسيت، حظر الاقتراب من حديقة رأس التين …

أجاوز الكثير من التقاطعات والمفارق.

لا يشغلني السبب الذي مال بي عن السير في طريق، واتجاهي إلى طريق آخر. بدت كل الشوارع متشابهة، تعدد عبوري لها فتشابهت، لا أعرف من أين أتيت، ولا إلى أين أمضي.

تحل لحظات ساكنة، لا أشعر أني رأيت شيئًا، تغيب المرئيات، لا تستوقفني، ولا أتذكرها، أو أستعيدها.

تبينت غياب مبرر وجودي في الشارع الضيق، المتفرع من شارع قصر رأس التين. اللافتة على جانب الجدار: شارع سيدي لالو. أين ضريح هذا الولي، أو مقامه؟

ما الذي أتى بي إلى هنا؟

الملاحقة هي ما يقلقني، وأعدت له حواسي. لا أعرف من ألجأ إليه في هروبي من المطاردة اللعينة.

حرصت على تحاشي الميادين والشوارع الرئيسة والمفارق والتقاطعات. أميل إلى الشوارع القديمة، الضيقة، المتقاطعة، المتشابكة، والحارات، والأزقة المفتوحة النهايات، الأرض الترابية، والبيوت المتساندة. أحاذي الحوائط بما يقارب الالتصاق. تقودني قدماي إلى أماكن لم أرها من قبل، تستغرقني الأفكار والمخاوف والوساوس والخيالات والذكريات، تأخذني إلى آفاق غامضة، محفوفة بما لا أتبينه.

احتمالات المطاردة أقل: اللامبالاة والإهمال وعدم التيقن والانشغال بالأشياء الصغيرة. عرفت أن لهواجسي ما يبررها: النظرات المحدقة، والمتأملة، والمتلفتة، والمتسائلة، تحاصرني بما يربك خطواتي.

ترامى صوت سيدة تطل من نافذة في شارع موطوش: هل تبحث عن أحد؟

غالبت الارتباك — لثوانٍ — ثم واصلت السير، دون أن أرنو ناحيتها. ملت ناحية مقامات الأئمة الأربعة عشر، وسط الميدان، لم أختر شبَّاكًا محددًا، قرأت الشهادتين والفاتحة لأولياء الله، مسحت وجهي براحة يدي، وواصلت السير.

التقيته في الدحديرة الصاعدة إلى الموازيني.

أعرف أنه يتشاغل — في سيره — بعدٍّ الأشياء، بلاطات الأرصفة، الأشجار، أبواب البيوت، النوافذ المفتوحة، أو المغلقة، أعمدة النور.

أجفل ملتفتًا إلى يد لامست كتفه، النظرة المستغربة تحولت إلى تهليل: طاهر حسين؟

مختار رزق، القامة النحيلة، العينان الباسمتان، شعر رأسه المهوش. أجاد تشذيب لحيته القصيرة، المدببة. فك أزرار قميصه العلوية، ظهر دغل من الشعر الكث، بنطلونه الجبردين فضفاض على ساقيه، ودس قدميه في صندل متقاطع السيور.

لم أعد ألتقي من ألفتهم في حياتي، ناس بيت الصوفية دنياي الوحيدة.

جمعت الكلمات في فمي، أردت أن أوضح ما أعانيه، تكلمت عن أشياء كثيرة، الحيرة في نظراته وشت بعدم متابعته ما جرى.

السر الذي لو أني أفشيته فسأكون أول ضحاياه، تحددت مفردات حياتي في المطاردة والتهديد والابتزاز المضمر. التدبيرات تدفعني إلى مجاوزة السر إلى العلن. عرفت أنه ينبغي أن أفعل شيئًا. حيرتني الوقفة في مفترق الطرق، لا أعرف اتجاها محددًا. اليأس يلوح في الأفق، لكنني سأواصل رفض الاعتراف بما لا أعرفه.

همس: أهلًا يا طاهر.

افترَّت شفتاه عن بسمة مشفقة، كأنه التقط ارتباكي: يبدو أنك تلزم السير جنب الحائط.

لمح التأمل في إطراقي الصامت، قال: ماذا فعلت؟

حدجته بنظرة متسائلة: هل صدقت اتهاماتهم؟

أطل من عينيه سؤال يطلب معنى ما حدث: أسألك عن غيابك.

تحسست الكلمات: لو أني بحت لهم بما أعرفه فالموت ينتظرني.

– لماذا لم تتصل بالواتس؟ الإنترنت صديقنا المشترك.

هززت ذراعي في نفاد حيلة: أنا لا أعرف شيئًا.

تنبه إلى التفات الواقفين أمام المكتبات المتلاصقة. أدرك أن صوتي بلغ آذانهم. تحركت شفتاه كأنه يريد أن يقول شيئًا، ثم بقي صامتًا.

دس في يدي المصافحة مفتاحًا: إن زادت المطاردة تعال!

شمس لي

شعرت باليد الثقيلة، وأنا أميل من شارع شريف إلى شارع عبد المنعم.

رسم الرجل على ملامحه ابتسامة معتذرة. رأيته أمام الكنيسة الإنجيلية، على رصيف سراي الحقانية، أسفل تمثال محمد علي وهو يمتطي جواده. أعرف أن الجريدة المطوية في يده إشارة إلى آخر، فيتبعني، يسلمني السائر خلفي إلى من يلحق بي حين أميل إلى شارع جانبي. بدا العالم ضيقًا، لا يتسع لي، يحاصرني.

وهو يقلب في الأوراق أمامه: طاهر حسين فتح الله.

تجمعت في حلقي مئات الكلمات التي أريد نطقها.

رمق صمتي المتحير: أنت؟

نظرت إليه بعين الارتياب.

– أين عامر المحمدي؟

ياه! لم أره من زمن.

آخر لقاءاتنا منذ أشهر بعيدة في شارع الميدان. لمحته وهو يميل إلى شارع وكالة الليمون، رددت بهزة مماثلة لهزة رأسه، وواصلت السير.

– لا أعرف.

– أليس صاحبك؟

– افترقنا في القهوة.

– ألا تعرف أين هو؟

– اسألوه.

– تهذر؟!

حاولت أن أتكلم، لكن الكلمات اختنقت في حلقي.

– لماذا تتصور أننا نحرص على تدميرك؟

واصطنع ملامح مترفقة.

– صدقني ... أحاول أن أساعدك في تبرئة ساحتك.

تشككت في أنه يكتفي بالنظر ناحيتي، دون أن يبين ما يشي بالإنصات. جعل ملامحه الساكنة واجهة يصعب النفاذ إلى ما وراءها.

إذا شككت فيمن يخفي الحقيقة، فانظر إلى عينيه. أكلم شخصًا قد يضمر مشاعره، أركز على نظرة عينيه أكثر من الكلمات التي ينطقها.

العين لا تخفي!

أدركت أنه يضمر ما تخفيه كلماته، لا يستطيع خداعي بالتلطف والمصانعة.

وهو يتخلل شعره بأصابع مرتجفة: لماذا لا تسهل الأمر علينا؟

الفرار هو الخاطر الوحيد الذي تملَّكني، سيطر على تفكيري ومشاعري. تربكني نظرات الشك والإدانة، لا أدري إن فعلت ما يستحق تلك النظرات؟

باب البيت يفضي إلى طرقة طويلة، تنتهي في شارع توفيق. على جانبيها — في الطابق الأرضي — شقتان متقابلتان، والمصعد إلى الطوابق العليا. في نهاية الطرقة باب ترددت في مجاوزته، فلا أفاجأ بما قد يغيب عن تصوري، وأعجز عن مغالبته، لكن الهدوء السادر إلا من ترامي نداء بائع خضار أغراني بالخروج. اندفعت إلى اليسار. أخذتني الشوارع الضيقة، الملتوية، إلى تقاطع شارع السبع بنات مع سوق راتب، ومنه إلى شارع الميدان.

ظللت في الخوف حتى وجدتني في شقة مختار رزق المطلة على حارة صغيرة متفرعة من شارع سوق السمك القديم، أتأمل من خصاصها إن كانت عين راصدة تتبعني. في الزاوية المطلة على نهاية الشارع. تتراءى مفارق شارعَي فرنسا ومحمد كريم، وتقاطعاتهما، البحر — آخر النظر — بامتداد زرقة أمواجه.

البحر يهبني رحابة الأفق.

يشغي شارع الميدان — من الناحية المقابلة — بالمارة والعربات، ودكاكين البقالة والبسطرمة وعصير القصب والحلوى الطحينية والأرز باللبن، وعربات الكشري والترمس والحلبة والحمص، وروائح السمك والبخور والعنبر والنشوق وأنواع العطارة، وصليل صاجات الخروب والعرقسوس، والأجولة والأقفاص والجرار والأوعية، ودقات الهاون داخل الأجران، وضربات النرد والدومينو والنداءات والصيحات في القهاوي المتناثرة، وروائح الدخان المحترق، وشواء اللحم، وجلبة الأصوات.

البيت – بطابقيه — قزم في صف البنايات العالية.

مدخل البيت مضاء، لغياب الضوء عنه من الحارة الضيقة. تكومت وراء ضلفة الباب المغلقة إطارات مستعملة، وغزل صيد متآكل، وقفف، وقطع فلين، وإسفنج. المدخل يفضي إلى السلالم، أقل من المتر هي المسافة التي تفصل بينهما.

جاست يدي في الظلمة، تبحث عن مزلاج الباب. تلمست الحائط، حتى عثرت على زر النور، ضغطت عليه، توضحت الشقة، صالة، وغرفة واحدة، ملحق بها مطبخ ودورة مياه. يشغلها سرير سفري، ومكتب صغير، ومقعد خيزران، ودولاب قديم له مرآة مكسورة من أسفل، وإن علَّق ملابسه في مسمار داخل الحائط. وثمة جدار مغطًّى بالكتب من الأرض إلى السقف. فرشت على الأرضية سجادة من بقايا الأقمشة، وتناثر فوقها، وعلى المقاعد والطاولة كتب وصحف ممزقة ومطوية، وجورب وفانلة داخلية وفردة حذاء وصندل ممزق السيور، ومنفضة مليئة بأعقاب السجاير.

لصق حائط الصالة كنبة استامبولي، تشكل مع الكرسيين المتقابلين أمامها مكانًا للجلوس، حدست أنها تتحول — في الليل — إلى سرير ينام عليه. في الزاوية كرسي أمام طاولة، فوقها جهاز كمبيوتر. أعلى الحائط المقابل جهاز تليفزيون، في المنتصف طاولة خشبية، سطحها من الفورمايكا، وفوقها طفاية سجاير، وفازة خزفية في عنقها وردة حمراء بلاستيكية، وكتاب مقلوب — حدست أنه لم ينهِ قراءاته — عنوان غلافه «هؤلاء علموني». تكومت في الطرقة الضيقة بين الحجرة وبين المطبخ والحمام، كومات كتب ورصات صحف قديمة وصناديق وعلب كرتون وزجاجات فارغة ودلو يخلو من الماء.

زاوية النافذة المطلة على مدخل البيت تتيح رؤية مساحة صغيرة من السماء، بينما تعلو خطبة الجمعة، من موضع قريب، يتحدث فيها الخطيب عن فضائل شهر رمضان.

تذكرت أني لم أدعُه من قبل إلى البيت، ولا دعاني هو إلى بيته. لولا البطاقة الصغيرة بالعنوان، ما اتجهت ناحية شارع الميدان. ربما يعد — في الصالة — طعامه، يأكل، ينام، يقرأ، يكتب على الكمبيوتر، يشاهد التليفزيون، يلتقي الأصدقاء. هو — منذ قدومه من كفر الدوار إلى الإسكندرية — يرتب أموره بنفسه.

الإبحار في المستحيل

توقفت أنفاسي على صوت مفتاح يدور في مزلاج الباب.

– مختار؟

يرتدي ما يشبه الصديرية، زرقاء، حواشيها مطرزة بنقوش ذهبية، تعلو بنطلون جينز، وصندلًا متقاطع السيور.

ملامحه كما أذكرها: هو أقرب إلى الطيبة، تشيع البسمة الهادئة في وجهه المستدير، الأبيض، المشرب بالحمرة، والعينين اللوزيتين الواسعتين، تظللهما حواجب كثيفة. إن ابتسم، انفرجت شفتاه عن أسنان ملتمعة.

رنوت إليه بنظرة متسائلة: متى كان آخر لقاءاتنا؟

– أمس.

– والأشهر الفائتة؟

– لا أذكرها.

اعتدنا الكلام — حين نلتقي — فيما تستدعيه خواطرنا، كأنه لم يمضِ وقت على آخر لقاءاتنا.

أطلق ضحكة قصيرة: صدقني ... تتباعد لقاءاتنا فأشعر — في كل لقاء — أننا لم نفترق! وهو يشير إلى لوحة على الجدار لقارب صغير وسط تكوينات لونية: بريشتي.

وبلهجة معتذرة: بدلًا من اللوحات المقلدة الرديئة.

وأشار بإصبعه إلى صدره، في هيئة من يقول اعترافًا: جئت إلى الإسكندرية لدخول كلية الفنون الجميلة. اشتغلت عند الأوسطى سباتة، لم أستكمل دراستي، وبقيت عند سباتة! اتجه بنظرته إلى ما تناثر في الأرضية، وعلى المقاعد والطاولة والسرير، من كتب وصحف ممزقة ومطوية، وأشرطة تسجيل بلا أغلفة، ومنافض مليئة بأعقاب السجاير.

واجهني بملامح مشفقة.

– أكلت؟

شعرت أني غير قادر على إيجاد الكلمات المناسبة.

– عندك الثلاجة، فيها ما يليق بأعزب.

واتسعت — على شفتيه — ابتسامة ود: إذا لم يعجبك أكل الثلاجة، فعندك المطبخ.

التفت بتلقائية، تأملت أشعة الشمس المترامية على الباب.

– لا أعرف إلا سلق الأرز.

وفي لهجة معتذرة: ربما أعددت طبق سلاطة هدية لفمك.

كأنما كانت أمي تعدني للوحدة: دعتني للوقوف بجانبها في المطبخ، ساعدتها في تنقية الأرز، وتقطيع شرائح البطاطس والطماطم. علت وجهها تكشيرة لما أعدت رأس البصلة معتذرًا بالرائحة التي تدمع العين. علمتني طهو الأرز المحمر بالفلفل الأسود، قلي السمك، وشيَّه، وإعداد الصيادية، سلق اللحم، شرائح البطاطس بالصلصة الحمراء، قلي البيض، المكرونة بالشكشوكة، ذبح الطير، وسلخه، وتقطيعه، وتنظيفه من الأمعاء، وحشوه بالبهارات.

نسيت ما تعلمته، باعتياد السندوتشات، أو الطعام الساخن في مطعم الطنطاوي بشارع محمد كريم.

مرة وحيدة نزلت السوق لشراء طلباتها. يضايقني الفصال والمساومات. اقتصر سيري على انحناءة شارع رأس التين إلى أول شارع الميدان، الدكاكين متلاصقة، وما فيها يتكرر بامتداد السوق إلى جامع الشيخ.

سألتني: فاصلت؟

– ما طلبه البائع دفعته.

تنهدت: دع لي أمر السوق.

وشت شفتا مختار بابتسامة مشفقة: عليك بالأرز، واترك لي الباقي.

ثم وهو يداعب أصابع قدمه: أنا مقطوع؛ لا زوجة، ولا أبناء، وأهلي في كفر الدوار.

– لماذا لا تتزوج؟

لم يكن المعنى قد خطر — حتى تلك اللحظة — على بالي. نسيت أننا في سن متقاربة، وأني لم أتزوج. يخطو كل منا إلى الثالثة والعشرين.

في لهجة تأسف: أعيش رزق يوم بيوم. ما أحصل عليه مبالغ طياري لا تتيح لي الزواج.

مد يده في فتحة القميص، داعبت غابة الشعر في صدره: لم يكن عندي للقراءة إلا ما أختطفه من أوقات الإجازة. الآن وقتي كله للإجازة!

لا أذكر مناسبة روايتي لقضاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بين المرأتين المتنازعتين على أمومة طفل، بما يعيد قضاء النبي سليمان في زمن قديم.

قاطعني الشيخ صالح جاد الرب: يبدو أن ذلك الكتاب سرق مخك.

قلت: أي كتاب؟

– كتاب الشيعة.

انتبهت إلى تذكري وقائع من كتاب «قضاء أمير المؤمنين»، استشهادي بأحكامه وأقواله. كأني نسخت الكتاب في ذهني بأكمله. أستعيد فقرات في عظات شيخ الطريقة، كلمات الشيخ صالح جاد الرب، قراءة في كتاب، رأي مريدي صخب الآراء، بعد انفضاض الحضرة، عبارة ترامت في الطريق.

أخليت ملامحي للدهشة: الكتاب عن الخليفة علي بن أبي طالب.

في لهجة حاسمة: اقصر قراءاتك على كتب الصوفية.

زايلني الشعور بالوحدة، غيبه ما ثبت في ذاكرتي: أحاديث مختار رزق عن محمود درويش وطه حسين ونجيب محفوظ وجارثيا ماركيث وكونديرا وبيكاسو وإيزابيل الليندي وموزار وتشايكوفسكي وباخ وفيفالدي وفاجنر وبيتهوفن وعمر خيرت، تنقلنا بين باعة الكتب القديمة في دكاكين العطارين وأرصفة النبي دانيال. ترددنا — في أوقات متباعدة — على سينما «أمير»، أدعوه إلى الفيلم العربي، يدعوني إلى الفيلم الأمريكي، عصر كل أحد — مباريات كرة القدم في الساحة، مشاهدتنا المجاورة لقصر الثقافة، صلاة الجمعة في أبو العباس، اندساسنا في الجلوات المتجهة من أول شارع الأباصيري إلى نهاية شارع الميدان. يمتد سيرنا في شارع فرنسا والأسواق الجانبية: الخيط، المغاربة، العقادين، زنقة الستات، لا ننتبه إلى مرور الوقت، جلساتنا على الكورنيش الحجري، قبالة ضريح الجندي المجهول، نرقب الحركة في المينا الشرقية، صيادي الجرافة والطراحة والسنارة، اللنشات المنطلقة ما بين السلسلة وجامع نور الإسلام، البلانسات في انطلاقها ناحية البوغاز، وعودتها.

أظهر اهتمامي بما يرويه عن مشاهداته: المعارض الفنية، والمتاحف، والحفلات الموسيقية، وإن لم أرافقه في تردده عليها. نتمشى على الشاطئ، يرافقنا إيقاع اصطدام أحذيتنا بما على الرمال من الكرات البلاستيكية ولعب الأطفال ومزق الأوراق وبقايا الطعام والزجاجات الفارغة ومعلبات الصفيح والكرتون. يشرح لي تعبيرات، أو كلمات، تنطقها بيئة القرية بما قد لا يفهمه أبناء البيئة الساحلية، يلتقط الحيرة في نظراتي، وهو يتكلم

عن داير الناحية ووابور الطحين والشجرة أم الشعور وسكة الزراعية والمصطبة. يعيدها بكلمات تشرح المعنى، أو تقربه. يتحدث عن قعوده مع شبان تحت ظل شجرة التين، صعوده — في غفلة — إلى مئذنة الجامع القصيرة ورفعه الأذان بلا وقت صلاة، التسكع — بلا هدف — في سوق القرية، استمنائه وهو ينظر إلى صورته في مياه الترعة: هل ظننت نفسي نرسيس؟!

ربما سبحنا في مياه الأنفوشي، نتبارى أينا يظل تحت الماء مدة أطول من الآخر، نواصل العوم إلى صخرة الأنفوشي، من يسبق إلى لمس صخورها فهو الأسبق، ونعود، نتأمل ما تشغي به حلقة السمك من الأحواض والطسوت والطبالي والفريشة والسواطير ورائحة الزفارة وبقايا التنظيف والعطن. يطول انتظارنا لصيد الشباك، نضعها في الخلاء المطل على بحر الأنفوشي. أسراب الطير القادمة من الشمال: السمان والشرشير والبلبول، تصطدم — في لحظة ما — بالشباك المنصوبة. نترك المكان وفي بال كلٍّ منا أكلة معتبرة. ربما ارتوينا بكوبَي عصير قصب من الرشيدي، قبالة جامع عبد الرحمن بن هرمز، في شارع رأس التين. يأخذنا التمشي دون أن نتبادل الكلام، لا يجد أحدنا ما يقوله للآخر، فيصمت، وإن اطمأن إلى الشعور بأن صديقه الذي يحبه هو السائر إلى جانبه. يراودنا — عند النظر إلى الأشياء — خاطر واحد، تعلو ضحكاتنا، أو نبتسم، أو يأخذنا الحزن، أحيانًا، نستبدل بالكلمات إشارة، إيماءة، ابتسامة ذات معنى. لا أسرار يخفيها أحدنا عن صاحبه، يبوح له بما يعانيه، وما يأمله. كل منا مرآة للآخر، يرى فيها نفسه، بلا مداراة ولا تكلف. إن اتفقنا في الرأي، التقى كفَّانا في مصافحة لها صوت.

في اقترابنا من اللمة على الشاطئ، بدا مختار شخصًا آخر غير الذي أعرفه. الجثة المتورمة التي جرفتها الأمواج، البشرة المصطبغة بالسواد، البطن المنتفخ، العينان المبحلقتان، الساكنتان، الفم المفتوح عن آخره. ما كدنا نبتعد خطوات، حتى مال على نفسه، وتقيأ.

أخذتني الدهشة من ارتقائه قاعدة تمثال سعد زغلول. هتف وهو ينقر على التمثال بأصابعه: أنت تنظر إلى البحر كي لا ترى مصائب الداخل!

نفترق — دون موعد — في تقاطع الطريق إلى الأنفوشي والمينا الشرقية. أخترق شوارع السيالة في اتجاه البيت، ويمضي إلى محطة الترام.

أومأ بابتسامة لأواصل الكلام.

حفزني إصغاؤه على الاسترسال في الكلام، أتكلم، وأتكلم. رويت ما جرى بالتفصيل، لا مبالغة، لا تهوين، لا زيادة، لا إضمار، هذا هو ما حدث تمامًا.

اكتفى بالإنصات، دون أن يوجه أسئلة، أو يناقش، أو يبدي رأيًا. طبيعته أميل إلى الاستغراق في التفكير، لا يبوح بما يشغله.

بُحت بكل ما في نفسي، حتى الأسرار التي يجب كتمها. ما حذرني الشيخ صالح جاد الرب من حكايته، ظل مثل الغرفة الواحدة والأربعين المغلقة.

قال مختار: ياه! ... أخفيت عني ذلك كله؟

لم أتذكره، حتى في أوقات حاجتي إلى من أفضفض له بما أعانيه. يمتلك قدرة طيبة على الملاحظة. أسأله بتوقع أن تفتح لي ردوده آفاقًا غمضت عن معرفتي.

قلت: لم أَخْفه، لكن الدوامة أخذتني.

استحثني بإيماءة على مواصلة الحكي.

خذلتني الكلمات، بدت عاجزة عن فض ما بنفسي. أخفقت في أن أقول شيئًا، أو أنه لم تكن عندي رغبة في الكلام. لم أعد أعرف ما أقول، وإن شجعتني نظرته الصامتة، على معاودة ما كنت أرويه.

قاطع تهيُّئي لمواصلة الكلام، بإشارة من يده. أصاخ سمعه لتناهي صوت من المنور. قال — بلهجة معتذرة — إن الصوت — تحت نافذة المنور — ليمامة بنت عشها: لا أنظر من الشباك حتى لا أخيفها!

حدقت — على رمال الأنفوشي — في الجسم الصغير، الغريب، أتثبت من نوعه. لم يكن من أنواع السمك التي أعرفها، يختلف حتى عن الأسماك المتسللة من البحر الأحمر، أو البحار والمحيطات التي تصيد فيها البلانسات.

– هذه أول مرة أشاهد هذه السمكة ...

وأعدت تأملها: هل هي سمكة؟

– ما دمنا لا نعرفها ... أعدها إلى البحر.

وأومأ برأسه ناحية البحر: إذا كانت حياة الإنسان في البر، فإن حياة مخلوقات البحر في المياه.

ظللت صامتًا.

وشى صوت مختار بالضيق: لن نأكلها، لماذا لا تعيدها بدلًا من أن تموت؟

وطوَّح بالمخلوق — بآخر عزمه — ناحية الموج.

لم أقل ما اعتزمت أن أقوله. تلاشت رغبتي في البوح.

حدجني بنظرة متسائلة: قلت كل ما لديك؟

حاولت مداراة ارتباكي برشف الشاي: ما أذكره.

وهو يرقب الدخان المتصاعد من سيجارته، يتشكل في تكوينات متلاشية: كما أرى فإنهم يعرفون عنك ما لا تعرفه أنت.

أطفأ السيجارة — منفعلًا — في الطبق الصغير، وسحب من العلبة سيجارة أخرى، أشعلها، وواصل الكلام: أخشى أن ما جرى لك قدر لا تملك دفعه، ولا الفرار منه.

ولانت لهجته: أشفق عليك من الإبحار في المستحيل.

هل يعرف أسباب ما يحدث، ويتظاهر بالعكس؟

آخر مناقشاتنا عن عملي في بيت الصوفية، قوله لنظرتي المستغربة حين أحاط رجل بعلم الطريقة حول خصره، ورقص: لو أن الطرق الصوفية زالت، فلن يبقى إلا الدين الخالص!

كنا نتحدث عن الحياة في البيت، لا نتطرق إلى الطريقة، ولا إلى الصوفية. أدركت أن نظرته إلى عملي في البيت مماثلة لنظرتي إلى عمله مع الترزي سباتة.

عند التهيؤ للنوم، التقط ارتباكي وأنا أمسح الشقة ذات الصالة والنافذة الواحدة. السرير صغير، يسع شخصًا واحدًا: لماذا لا نتمدد على الأرض؟

في نفاد حيلة: المهم أن ننام!

انتفض كالمنتبه: ما لم تقله: هل تحتفظ بالسر لنفسك؟ ألم تخبر أحدًا بالفعل؟

– أنا لا أعرف ما يبحثون عنه!

شفَّت نبرته عن تأثر.

– ما تواجهه قد يدفعك إلى الاعتراف بارتكاب جريمة ملفقة.

أدركت أنه يحاول حثِّي على الكلام. ظللت صامتًا، خشيت — إذا تكلمت — أن تبين مشاعري.

– إذا لم تكن تعرف فاصمت. لا تحاول ادعاء المعرفة.

وشرد بالنظر إلى نقطة بعيدة، تخترق النافذة المغلقة: معاناة البشر واحدة وإن اختلفت صورها.

وفي نبرة تفضح حزنه: أنت تعاني مطاردة سخيفة، وأنا أعاني لقمة عيش مرة.

وعلا صوته: يكتفي الزبائن الآن بقلب البدل المستعملة بدلًا من شراء الجديدة.

وفي لهجة معتذرة: ليس من حقي أن أسقط مشاعري الخاصة عليك. أنت تعاني من الهموم ما يجعلك في غير حاجة إلى أحزان.

وقذف بالسيجارة قبل أن ينتهي من تدخينها: انسَ هذا الأمر.

عندما تتحرك الظلال

مضت — بقامتها القصيرة، الممتلئة، والإيشارب الذي أخفى معظم شعرها الأسود، وجانبًا من وجهها — في شارع الأباصيري. مالت — قبل نهاية الشارع — في شارع جانبي ضيق، ألقت السلام على البقال الملاصق لباب البيت، ودخلت.

تنقلت بين الورش وهياكل السفن والقوارب المقلوبة وألواح الخشب والغزل والحبال وكومات الحجارة وقعدات الصيادين وباعة الشاطئ. بدت الملامح مطموسة، أو غائبة، حتى الاسم لا أعرفه.

ابتسم — لارتباكي — الرجل ذو السروال الأبيض، الفضفاض، يعلوه قميص وصديري مزدان بأزرار صغيرة متجاورة: هل استهواك القزق؟

وغمز بعينه: إن أردت فاتن فابحث عنها في شارع الأباصيري.

لحق ابتعادي بالقول: أنت تبحث عن فاتن مقدمة الشاي لأسطوات القزق. هي الآن ملكة متوجة في بيت الأشعل.

التقطت الاسم.

هذه إذن هي الفتاة التي دست عليَّ اتهاماتهم بما لم أفعله.

أول رؤيتي لها، وهي تلتفت ناحيتي في اتجاهها إلى البحر، فطنت — بعد فوات الأوان — إلى الصلة بين النظرة والمشية المتأودة. أخذني التمشي على الشاطئ، علا الصراخ، تبينت الجسد الذي يصارع الغرق، نسيت حتى التردد في داخلي، نزعت ملابسي، وجريت ناحية البحر.

عاودت السير في شارع الأباصيري من أوله، أسأل أصحاب الدكاكين، والجالسات على أبواب البيوت، والمطلات من النوافذ. أصف المرأة كما أتذكرها، أهمل الملاحظات المؤنبة للسؤال عن سيدة. ما أريده هدف لا قيمة للمعاناة في فك ألغازه.

قال لي الرجل من وراء الضباب الذي صنعته صينية الهريسة: تريد فاتن؟

أردف لنظرتي المتسائلة: نسيت اتهامها لك؟!

أصابني تبلد، لم أعد قادرًا على الكلام، ولا الحركة، ولا فعل أي شيء.

وهو يشير بيده ناحية السيالة: بيت الأشعل في حارة المزار. ستعود من الطريق نفسه.

واصطنع لهجة إشفاق: خذ حذرك. لا جزء في جسدها يخلو من عضة شاب!

ظللت في وقفتي أعلى دحديرة أبو العباس، حتى عاد الهدوء إلى المكان، لا مارة، ولا أعين في النوافذ أو مداخل البيوت، والدكاكين الثلاثة المتجاورة مغلقة.

منذ صحبني الشيخ جاد الرب خارج نقطة الأنفوشي، لم تعد المرأة شاغلًا لي. قال الشيخ للضابط ما أقنعه.

عرفت في حكايات خواص المريدين، من يرفضون أقوال محسن الأشعل وأفعاله، ما لم أكن أعرفه.

فاجأته زوجته — في عودته إلى البيت — بالتقاط كوب من الطاولة أمامها، قذفته ناحيته بآخر عزمها.

– لماذا تركت حبيبة القلب؟

أدرك المعنى. حاول لملمة نفسه: أنا لم أتركها. أنت حبيبة قلبي.

علا صوتها: هل تظن عطارتك تعوض ما فقدته؟!

وضعت سبابتها على فمها، كي لا يرد. استطردت: أنت تلعب في الوقت الضائع!

ارتعشت يدها بفنجان القهوة، أعادته إلى الطاولة، وأكملت كلامها: إن أردت عشيقة فأحسن الاختيار. البحر يشغي بالأسماك الجميلة!

أدركت — حين رأتها في الحلقة — أنها خلقت للعشق، جسدها الخالي من الانحناءات والتكويرات التي تغيب عن جسمها الممتلئ، والبحة المنغمة في صوتها. وصف الريس رجب أبو علي ضحكتها في داخل الحلقة بأنها تطير العقل. تظاهر الشيخ الأشعل برعاية المرأة لشيء في نفسه، هي خالية من الجمال، يا وحشة كوني نغشة، ذلك ما تفعله المرأة، طبيعتها الأنثوية تداري — بالأصباغ والتقصع — دمامتها الواضحة.

تعرف أنها تقترب من السن الذي تتجه فيه نظرات الرجال إلى نساء أخريات. ربما ذلك ما يفعله زوجها. لم يكن حبه لها يمنعه من إقامة علاقات أخرى، جانبية أو عابرة. فتشت في ملابسه، وفي أوراق العمل. لم تجد وثيقة الزواج التي تؤكد تخمينها، لكن الهاجس لزم رأسها. عمق خوفها أنه خصص للمرأة شقة في بيت يملكه، ربما لو أنها انتظرت، فستأتي

المرأة، وتأخذ مكانها في البيت. إذا تحدى الشيخوخة، وأغوته الصرمحة، فسأريحه مما بين فخذيه!

قلص التأثر أمعاءها، شعرت بتهيؤ للقيء، وارتعاشة في جسدها، حين أبلغها أكبر أبنائه أن المرأة لجأت إلى التعاويذ لتطليقها.

تبع الولد روايته بالقول: احذري. فاتن ليست ككل النساء!

ثم وهو يغالب حرجه: قال الريس مأمون البنا — لما أغرى بها مهندس الحي: رشوة النقود تزول بإنفاقها، جسدها رشوة عينية محترمة، لا تُنسى.

رمقته بعينين مشتعلتين: تنسى بيتك مع امرأة كل الرجال.

والتوت شفتاها في ابتسامة ساخرة: نسيت أن ابنك أطول منك؟!

قصدته في بيت الصوفية، تطلب وساطته لموافقة الحي على إقامة الكشك بين الورش. استغرقه قوامها وملامحها وتأودها. سألها عن أسطوات القزق: هل يحسنون معاملتها؟ عن أهلها في كرموز، مشوارها اليومي ما بين البيت والأنفوشي.

تكررت زياراتها بالأوراق المطلوبة. زارها في الورش. قدمت له الشاي من الكشك المغروس في الرمال، ألواح الصاج، وخشب الصناديق، والورق المقوى.

رسم على وجهه أمارات التشكك.

– إذا هبت النوة فستزيل الكشك.

أعاد بناء الكانتين، رص في الأرفف أكياس العطارة، ما يحتاجه ناس البحر لمغالبة الإجهاد والتقوية. أضاف عبوات من اللبن الجاف والملح والسكر والشاي وعلب البولوبيف. لطول المشوار بين القزق وبيت أهلها في كرموز، أخلى لها شقة من غرفة وصالة في حارة المزار، الواصلة بين شارعي الأباصيري ومحمد كريم.

أدركت أنه أحبها.

قدمت من ناحية ميدان الأئمة، أطلقت بلوزتها القطنية خارج البنطلون الجينز الضيق، كأنها خاطته حول ردفيها، ولها مشية مترجرجة.

المفاجأة ما دبرته لمواجهتها، تراني أمامها، لا تجد وقتًا للهرب، أو للاستغاثة. إذا التقينا في الشارع، فإنها قد تصدمني بما لم أعدَّ له نفسي، ولا تصورته. ربما واجهتني بالعداء من قبل أن تلتقي، الأعين.

التقطت ما حولي بنظرة ملهوفة، ودخلت.

وضعت كفي على فمها، فلا تتحول الشهقة إلى صراخ.

غطت جانب وجهها الأيمن بإيشارب، تحاول مداراة ما يبدو تهدلًا في عينها وزاوية فمها. لا أذكر كيف كانت على الشاطئ، ولا إن كان ما أصابها قديم. ما أعرفه أن حياتي متعلقة بما تعلمه، وتخفيه.

– من أنت؟

همت بالكلام، ثم سكتت.

أعياني البحث. تعددت الروايات عنها، أصلها وفصلها، والمؤامرة التي جرت من بعدها تهديدات كثيرة، ها هي ذي أمامي، واقفة، تخفي بالإيشارب ملامحها.

وهي تجاهد لتهدئة أنفاسها المتلاحقة: كيف عرفت مكاني؟

وأنا أزفر: دخت؛ حفظ الناس سحنتي!

وحدجتها بنظرة متسائلة: هل رأيتني قبل ذلك اليوم؟

وأشرت ناحية النافذة.

ارتعشت شفتاها كما لو كانت تهم بالكلام، ثم لزمت الصمت.

أعدت السؤال: من أنت؟

غالبت ترددها: أعرفك من قبل أن ألتقيك!

استعدت الكلمات التي لحقني بها ذو السروال الأبيض، الفضفاض، والقميص والصديري: هي سمكة تجيد العوم في فراش أي رجل.

من هذه المرأة؟

أدرتها من كتفيها في مواجهتي: من دبر ما حدث؟

حدست — ربما — أني سأصفعها، رفعت ذراعيها — بتلقائية — تتقي الصفعة.

أزاحت الإيشارب.

حدقت، أبحث عما تحاول إخفاءه. شعرها المصبوغ بالحمرة لا يتناسب مع بشرتها السمراء. الوجه على غير ما تصورته، النمش الخفيف يغطي معظم وجهها، الحاجبان على شكل قوسين رفيعين. ظللا العينين بلون أزرق فوسفوري. حددت شفتيها بحمرة داكنة.

هي المرأة التي استغاثت بي في شاطئ الأنفوشي. لماذا تتخفى؟ وممن؟ ومن الذي حرضها على ما فعلت؟

قاومت رغبة في أن أنتف شعرة طويلة في الشامة أسفل ذقنها.

عدلت الطرحة السوداء فوق رأسها.

– لاحظت ميلك لمراقبتي، أخشى أن يجرك ما تحاوله إلى إيذاء نفسك.

بسطت ذراعيَّ بامتدادهما: ليس أشد من هذا الأذى.

واجهتني بعينين مشتعلتين: ما لم ينالوا ما يريدون فسيظل الخطر أكبر مما تتصوره.

أدركت من لهفة عينيها، أنها تنتظر أن أحكي ما أعرفه، أدلها على ما أرهقني إخفاؤه. تنبهت — في لحظة لا أذكرها — إلى تعاطفي مع كلامها. حكت وقائع استدعت ما عانيته في وحدة صباي، حتى تكفل الشيخ برعايتي.

أزمعت أن أظل صامتًا، فلا أبوح بما قد أعاني تأثيراته.

أطلقت «أف» غاضبة: فتحت الأبواب على ما لم يدُر في بالي، ولا تصورته، امتدت التهم باتساع العالم: مداراة أفعال الفتوات وباعة المخدرات في قبو الملاح والبلقطرية، اغتصاب طفل في خرابة شارع سراي محسن باشا، تهريب بضائع من الدائرة الجمركية …

من الذي دبر ذلك، ووضعه على الأفواه؟

اقتحمني الارتباك من نظرتها المحدقة: سأفعل أي شيء لأنقذ نفسي من الجنون.

– ليس أمامك إلا الابتعاد بنفسك.

أردفت بنبرة مستهزئة: أنت لا تستطيع الدفاع عن ثيابك الداخلية!

وداخل صوتها إشفاق: لماذا لا تعطيهم ما يريدون. تنقذ نفسك، وتبعد عن تهديداتهم. بدت الكلمات مألوفة، كأني سمعتها من قبل.

كيف أعوم وأنا لا أحسن السباحة؟

لا أعرف الوقت الذي استغرقني فيه النوم، لكنني صحوت على تحديقي في السائل الأبيض، زعمت ضرة المرأة أنه مني في مضاجعتها لغريب. سكب الإمام على السائل — أمامي — ماءً ساخنًا، تكشف بياض البيضة. هللت مع الواقفين لبراءة الزوجة المسكينة. غالبت القيظ وأنا أرافق موكب الجارية الحسناء، خشيت سيدتها أن يستهوي جمالها الزوج، أمرت فأحاطت بها نساء البيت، افتضضن بكارتها، ورمتها الزوجة بالفجور. انتهى الموكب إلى مجلس الإمام، قضى — بعد أن اكتشف المكيدة — بإقامة الحد على المرأة، لقذفها الجارية. ذهلت لصياح المرأة في الإمام: تريد أن تزوجني من ولدي؟ هذا الولد ولدي! ادعت المرأة أنها بخاتم ربها، لم تتزوج ولا أنجبت، عرض الإمام تزويجها من الولد الذي أنكرت بنوته.

بدا لي الإمام في هيئة كنت أتخيلها، تشكلت من مواقفه، وأقواله، والمعارك التي خاضها: ربعة، عريض اللحية والمنكبين، قوي العضلات، إلى حد أنه جعل من باب بيت درعا يصد سيوف الكفار، فلما ترك الباب عجز عن حمله ثلاثة رجال. ينم وجهه عن العافية، وبشرته متوردة، وملامحه منحوتة، واضحة، يسيل شعره على منكبيه، تتوسط جبهته علامة السجود، تظلل عينيه الواسعتين، اللامعتين، حواجب كثيفة، لعينيه بريق، يربك من يرنو إليه بنظراته. ينظر في عينَي الشخص، يواجهه بمؤاخذاته، صوته هادئ، يدعو إلى الثقة، وإن امتلك قدرة واضحة على الملاحظة، وشخصية قوية، مسيطرة.

تلفت حولي بتصور أن ما شاهدته مجرد حلم غيبه الصحو. اختلطت المشاهد مما قرأته في كتاب «قضاء أمير المؤمنين»، تشابكت، واضحة فكدت ألامسها، أو كالأطياف التي غابت ملامحها. لم يتبدل العالم الذي أعيشه، بيت الصوفية بناسه وقراءاته وشعائره وأذكاره وعظات شيخ الوقت. أضاف الكتاب بما يصعب نسيانه، هو في ذاكرتي: الوقائع والأسماء والتبرئة والإدانات والأحكام التي استدعتها حيل ذكية.

تناسيت أيام انشغالي بالكتاب، عزلني عن الدنيا كلها، داخلني شعور بأن شيئًا ما سيحدث، لا أعرف طبيعته، لكنني أتوقع حدوثه. همست: اللهم اجعله خيرًا.

تمنيت أن يكون كذلك.

ما ألفته ومضات تثبت قليلًا، أو تمضي كأنها لم تكن.

اختلف الأمر هذه المرة، اخترقني خوف لم أعهده في نفسي من قبل. تقاربت الحوائط، تقاصر السقف، لم يعد جسدي المضغوط يقوى على الحركة، ولا استطعت التقاط أنفاسي.

ربما ضللت طريقي الشوارع الملتوية والحواري والأزقة. تحولت إلى متاهات، تذكرني بما كنت أحاول اختراقه — بالقلم — في مجلة «قطر الندي» — أيام طفولتي — عبر انحناءات وتقاطعات وتعرجات، حتى أبلغ النهاية. متاهات الشوارع بلا نهاية.

التقطت صيحة محذرة من سقوطي في بركة آسنة. قفزت — بالكاد — من فوقها. لوحت بيدي، وواصلت السير.

يقصد الناس مقام سيدي العدوي أول شارع صفر باشا، طلبًا لوساطته، كي يعيد الغائبين والمفقودين.

هل ألجأ إليه لاستعادة نفسي الضائعة؟ عبرت طريق الكورنيش في اتجاه الشاطئ المواجه لسراي رأس التين، الحقيبة الصغيرة على كتفي، أضع فيها بنطلونين، وقميصين، وبلوفرًا، وغيارات داخلية. خطواتي، تتعثر في سيرها على الأرض الرملية، لا لأنها تسوخ في الرمال، بل للخوف من النظرات المحدقة، وردود الأفعال المتوقعة.

خلوت إلى نفسي في كابين بلا نافذة، ليست «كابين» بالتحديد، لكنها كشك صغير من الخشب والصفيح، وشى الإهمال والأوساخ أمامه، وفي داخله، أنه مهجور من فترة بعيدة. تساند على كابين لها العديد من الأبواب والنوافذ. نسيت — في احتمائي به — خوفي من الظلمة.

نظرت من انفراجة طولية، لا شيء استوقفني، لا أحد ولا قوارب ولا أضواء، الظلمة الشديدة تحول دون رؤيتي لما في الخارج، ولن يستطيعوا رؤيتي. الليل يصحبني حتى الشروق، فأبتعد.

الاختفاء هو الوسيلة التي تعميهم، يعجزون عن مطاردتي. تختلف الأماكن، فلا أبقى في مكان واحد.

عشت — بالخيال — في جزيرة داخل البحر، أتحرك على أرضها الرملية، أو الصخرية، أستبدل بالفرار من المطاردة، مواضع خالية أعرف أطرافها.

حين رأيت عينَي عسكري السواحل تلمعان في الظلمة من ثقب الباب، تحاولان رؤية ما بالداخل، قهرني الخوف، الضغط الذي أواجهه لا سبيل إلى مقاومته، لا أستطيع أن أتحمل أكثر مما تحملته، لم أعد أقوى حتى أن أبرئ نفسي. أواجه العقاب، لا لأفعال ارتكبتها، وإنما لأفعال يدبرها الآخرون. عندما يقسو الضغط أعترف بما لم أفعله.

أزمعت ترك البحر، والعودة إلى المدينة، بعيدًا عن بحري، ذلك أقسى ما يمكن فعله.

فاضلت بين البيوت التي يمكن أن تستضيفني، شوش الارتباك كل ما يأتي إلى ذهني، حتى القوارب في مرسى المينا الشرقية، فكرت في أن أستقل أحدها، يمضي بي إلى الموانئ البعيدة.

فضلت — في النهاية — أن أنام ليلي داخل قارب مقلوب في القزق، لا أتركه حتى تبدأ حركة ما بعد الفجر.

الترقي في مراحل السلوك

أول تنبهي إلى اللحظات التي نسيتها، عندما اختار رجب البحة — المريد في الطريقة، وتاجر الأقمشة — كرسيًّا، وجاور طاولتي في قهوة أنح.

يرتدي سترة صيفية رمادية من الكتان. عمره بين الكهولة والشيخوخة. أبرز ما في ملامحه أهداب متآكلة، وجبهة عريضة منداة بالعرق، سحبت شعر رأسه إلى الوراء، تغلب الصفرة على بياض عينيه، يكثر من توسيع فتحتي أنفه، ويستنشق الهواء بعصبية.

لم أستطع أن أقرأ في عينيه شيئًا، لا حزنًا، ولا رضًا، ولا عنفًا، ولا أي شيء.

حدست أنه تابعني بعينيه، وأنا أتجه ناحية شارع السيالة في طريقي إلى قهوة الصيادين.

أذان الظهر يرفع من مئذنة أبو العباس، الميدان يعاني قلة الحركة. الشمس متوهجة في منتصف السماء، تخالط أشعتها سحب بيضاء، صغيرة، متناثرة، الهواء الساخن مشبع بالرطوبة. وهو يهوِّي على وجهه بجريدة مطوية.

– على أيامنا، كنا نجد صحتنا في شم يود البحر ... الآن، الزبالة هي ما نشمه!

انحنى على النارجيلة، يقلب جمرات الفحم بالماشة، يتأكد من تأثيرها، يجذبه بسرعة من مبسمها.

– التمباك الحقيقي تجده في قهوة أنح.

ودس مبسم النرجيلة بين شفتيه: إذا كانت الصلاة تعبيرًا عن المساواة، فإن المعنى نفسه نجده في شرب الشاي.

حدست من تلفته أنه يخشى أن يرانا أحد. أغمض عينيه، فتحهما في هيئة من يريد أن يخصَّني بسرٍّ يكتمه عن الآخرين. تنحنح، ودنا بوجهه ناحيتي. بدا أنه على وشك أن

يفصح عما غمض عني، لكنه استعاد هيئته، وظل صامتًا. جذب من الشيشة نفسًا طويلًا، حبسه في صدره لفترة، ثم نفثه من فتحتَي أنفه.

تمنيت لو أتسلل إلى باطنه، أعرف ما يضمره في نفسه، ماذا يخفي. تراجعت — بتلقائية — حين مال ناحيتي. أحسست أنفاسه تتردد بالقرب من أذني.

روى حكايات لم أفهمها، وقائع غير مترابطة، مفرداتها شيخ الطريقة، والمريدون، وأخطاء نسبها إليهم.

واجهني بنظرة مقتحمة: هل تحتفظ بملف بيت الصوفية؟

حذرني شيخ الطريقة، شيخ الوقت سالم غيث، من أن أحدث نفسي بما جرى، أنسى الأوراق التي لم أستطع قراءتها.

– أي ملف؟

– أعرف أن مولانا سالم غيث أخفاه، بعيدًا عن الأعين.

ظلت صامتًا، خشيت أن يفضح صوتي ما أعانيه.

فيما يشبه الصفير من أنفه: الموضوع أخطر من أن تنكره.

حملقت فيه بنظرة مستغربة: أي موضوع؟

– تلاعبني؟

– تكلمني فيما لا أعرفه.

زفر: أخشى أنك لا تدرك خطورة الأمر.

أردف دون أن يدير رأسه: إذا أرشدتنا إلى موضع الملف فلا شأن لك بالأمر كله.

– تتحدث عن شيء لا أعرفه.

ثنى الجريدة، دسها بين ذراعه وصدره: قد يودي بنا العناد إلى الموت!

هل أتناسى تحذير شيخ الوقت، فأتكلم عما نهاني عنه؟

واتتني جرأة لم أعرفها في نفسي: هذا سري الخاص. يصعب أن أبوح به.

لما زاد الرجل ضغط يده على يدي، أدركت أنه لا يقصد مجرد المصافحة.

رمقته بنظرة مستاءة. أضاف إلى استيائي ابتسامة لزجة، علقت بشفتيه.

بيت الصوفية

حدجني الشيخ صالح جاد الرب بنظرة متسائلة عن السبب الذي قدمت لأجله. آخر عملي في بيت الصوفية عقب صلاة المغرب. تلفت، تبدل الوقت يعكس تأثيراته في تبدل المكان. أذان العشاء يُرفع من مئذنة أبو العباس ومآذن ياقوت العرش والبوصيري ونصر الدين.

البيت أشبه بوكالة ضخمة، الباب الخشبي مزين بمستطيلات المسامير النحاسية. تدلت عليه مطرقة في هيئة حدوة حصان، وقفة الشيخ جاد الرب في نهاية الطرقة المفروشة بالحصير، آخرها باب يفضي إلى قاعة واسعة تناثر فيها ما يقرب من العشرين، انصرفوا إلى التهيؤ للصلاة. النوافذ عالية، الشرفات محلاة بالنقوش والمقرنصات، وغطى النشع مساحات في الأركان. على الجانبين حجرات، مغلقة ومفتوحة. في المنتصف صينية من النحاس، فوقها إبريق خزفي، وفناجين، وسكرية، وطبق صغير عليه قطع حلوى صغيرة. افترشت الجدار سجادة عليها رسم للمسجد النبوي. تدلت من السقف العالي، المقبب، نجفة هائلة، محملة بعشرات اللمبات الصغيرة. زين أعلى الجدران والأفاريز بالنقوش وآيات القرآن والكتابات العربية. وضعت على الأرفف مجامر يتضوع منها بخور طيب الرائحة. تناثرت في المكان وسائد صغيرة، للاتكاء عليها، أو للجلوس فوقها. يعمق الصمت وشيش مراوح علقت في زاويا الجدران، وترامي ابتهالات كالأصداء من موضع قريب.

تكررت الصورة، لكن كل شيء على حاله. هو المكان نفسه، وإن تغير الوقت، الاختلاف في السحن التي تشغلها — خارج البيت — أوقات النهار.

كان يسند ظهره إلى الحائط المجاور لباب حجرة شيخ الطريقة. أصابعه تدور بحبات المسبحة، وشفتاه لا تكفان عن التمتمة بآيات القرآن والتعاويذ والأدعية.

أطلت تأمله، كأني أراه للمرة الأولى، أتفحص ملامحه وتعبيراته، شعر رأسه المفلفل المنبجس من حافة الطاقية البيضاء، عينيه اللوزيتين الصاحيتين، عليهما نظارة ذات إطار

معدني، أنفه المستقيم، ذقنه المسدلة، وشاربه المحفي على السنة، إشارات يديه المعبرة عن معاني الكلمات. يضع على وجهه قناعًا من الصمت، فلا تستطيع أن تقرأ مشاعره. دائم المداعبة لشحمة أذنه. يرتدي جبة من الجوخ البني. لف حول رأسه عمامة من السكروتة، ووضع على كتفيه شالًا مزين الأطراف.

له دكان لبيع المصوغات في سوق الصاغة المتفرع من شارع الميدان، ترك لأكبر أبنائه إدارته، انقطع إلى العبادة والزهد، لازم الخدمة والمجاهدة في طاعة الله، عرف مسالك القرب. يجول في الملكوت، ينهل من البحر الإلهي، والمدد الرباني، يحضر مجالس العلم والخير، يخوض المساجلات، يستغرقه الجوع والعزلة والصمت والسهر والمثابرة والبذل والتضحية والفناء والزهد والعطاء، لا يشغله إلا الطريقة، هي محور تفكيره وتصرفاته وكلماته. صار من الأبدال، يعرف فضل الأوتاد الأربعة، الإمامين، فالقطب. قربه شيخ الوقت سالم غيث بالوصل في مقامه الرفيع. أدناه منه، وخصَّه بأسراره.

هو ملجأ لمن تضيق به الأمور، يلجأ المريدون إليه في كل أمور حياتهم، يقضي بالصواب. يؤمن بمحاسبة النفس قبل تربية المريدين، يرعى المريدين المحتاجين، وإن عمت صلاته وهداياه سائر الفرق، يخص برعايته فقراء الطريقة، يرتب لهم موارد رزق سخية ودائمة، ينفق من منح الوجهاء والأعيان وتجار الحي. رويت له كل شيء. ما يفد إلى خاطري، أو أتذكره. أصمت لألتقط أنفاسي، يحدق في عينيَّ، يستحثني على مواصلة الكلام. استعدت مألوف أيامي، واصلت سيري، أخترق شوارع وميادين وحارات، أجلس على مقاهٍ أصادفها، أجتر القلق والألم وما يصعب احتماله، شيء ما يسيطر على تفكيري، يملي عليَّ ما لا أستطيع مغالبته. ما فعلوه بدل حياتي تمامًا، اختلطت الأمور حد الفقد. أجد في أي مكان ملاذًا أقضي داخله أيامًا، أو ساعات. حتى أصدقائي، أبتعد عمن لا أطمئن إلى نظراتهم، ولا إلى كلماتهم. كل ما يدعو إلى الريبة أبتعد عنه. من حولي أشباح تترصدني. أتلفت حولي، أتبين من يخيفني. يذوي كل ما أعيشه، لا موالد، لا تطوحات أذكار، لا إنشاد، لا مطاردة أو أسئلة.

أقسى اللحظات حين تنتظر الخطر، لا تعرف صورته، ولا كيف تواجهه.

حدجني بنظرة متشككة: ما لا يعرفه أحد: هل تحتفظ بالسر؟ ألم تخبر أحدًا بالفعل؟ ظللت صامتًا، أحسست أني فقدت القدرة على استيعاب ما جرى. بدا كأنه يريد أن يقول شيئًا، لكنه يتردد في الإفصاح عنه. ثم غطى وجهه براحتيه، وهز رأسه: أنت مسئوليتي، سأظل إلى جانبك حتى ينتهي الأمر.

وربت كتفي: هل تخاف أن يقتلوك؟

أومأت بالموافقة على المعنى.

دعهم يبحثوا عنك. سيحاولون ابتزازك. قتلك ليس في صالحهم.

وزايلت الابتسامة شفتيه: إنهم لا يريدون قتلك، إنما يريدون تخويفك حتى تدلهم على موضع الملف.

وأطلق تنهيدة مفعمة بالاستياء: حياتك تفيدهم وليس موتك!

لم أعد أذهب إلى بيتي.

أنهيت قراءة صفحات من كتاب «قضاء أمير المؤمنين». في طريقي إلى السرير، أزحت طرف ستارة البلكونة. المرئيات ثابتة، عدا طيفًا لم أتبين ملامحه، في انحناءة الطريق إلى الحجاري. ترامى صوت غاب مصدره، كأنه يناديني باسمي. تلفت حولي في حيرة.

هل امتدت الملاحقة إلى أوقات الليل؟

في لهجة مهوِّنة: إنهم لا يملكون إلا التهديد.

وأودع نظرته تأثرًا: إذا لم تنزع الخوف من نفسك فسيواصلون مضايقتك.

وداعب شحمة أذنه: يحزنني من يسعى إلى المكانة دون أن يعي مسئولياتها.

ورشف من كوب الشاي بصوت مسموع: المرء قد يكون شجاعًا أو جبانًا أو متآمرًا، لكنه يظل — في كل الأحوال — بشرًا.

وعدل عباءته، وتنهد: أفعال الأشعل تخطت أفعال البشر.

لم يكن ثمة ما أستطيع أن أقوله، حركت شفتي بكلمات هامسة، مدغمة، وسكت.

قال: عندما يضربني العسكري فأنا لا أكرهه، إنما أكره من أمره بضربي.

أطال التفكير، ارتخت شفته السفلى: الدافع إلى ذلك محسن الأشعل ... محسوب على مولانا الشيخ سالم غيث ... لكنه يختلف معه.

وأنا أغالب الدهشة: ذقنه تبلغ صدره!

اغتصب ابتسامة: إطلاق اللحية ليس شرطًا للإقناع.

– الاختلاف لا يعني الخصومة، نختلف ولكن يظل الحوار قائمًا.

هز رأسه بإيماءة موافقة: مولانا لا يرفض الرأي المخالف، بل يرفض الفعل المخالف.

وشابت نبرته حدة: يجب أن تخلو الطريقة لأبنائها، نخلص الوردة من الأشواك!

أضاف لنظرتي المتسائلة: الأشعل مريد في الطريقة، لكنه مثل الجرح في الجسد، تقيحاته تؤذي بما ينبغي علاجه.

سكت، استحثثته بإيماءة على مواصلة الكلام: هو مريد في الطريقة، لكنه يريد الملف لنفسه.

– لماذا؟

– يريد أن يحتفظ به، يستأثر بما يحويه.

– إنها مجرد طلاسم.

شابت صوته رنة تحذير: هي أكبر من أفهامنا.

اطمأن إلى استناد ظهره على الجدار. أخذه الاسترسال، وأنا أسند ذقني إلى أصابعي المتكورة، والنظرة المستحثة تومئ بمواصلة الكلام: نحن لا نعرف عن محسن الأشعل شيئًا، لا أصله ولا فصله، ولا الظروف التي قدمت به إلى بحري. أراد التسلق بواسطة الطريقة، ادعى الانتماء، وأخذ العهد، لكنه خالف قواعد الطريقة وآدابها.

التصوف ليس صرخة، ولا هو أداة للكسب. لم يبايع الأشعل تقديرًا للشيخ، ولا لأن الشيخ في حاجة إليه. إنما له أهدافه التي سعى إليها بانتمائه للطريقة.

الصلاة صلة بين الله وعبيده، والعهد التزام بين الشيخ ومريديه. يمر المريد بمراحل من الإعداد، قبل أن يتهيأ للمثول بين يدي الشيخ، وأخذ العهد. العهد بيعة، من يبايع شيخه فإنه يلتزم بالطاعة والتوقير وعدم الخروج عن التعاليم. الملائكة هم شهود العهد، يقرونه، لأنه أُقر من الله ورسوله، يراقبون التزام المريد بما عليه من واجبات. يخلع المريد ما كان عليه من بالي الثياب، والثياب المادية، الحسية، يرتدي ثيابًا جديدة، متطهرة من الذنوب. نكث الأشعل — بما فعل — عهد الطريقة، وأبقى على ثيابه البالية.

النفس حجاب بين العبد وربه، لا تهب النسائم المنعشة، ولا الروائح الزكية، ما لم يشفَّ هذا الحجاب. اعتقد الشيخ محسن الأشعل في نفسه التميز عن بقية المريدين. رفض أن يساويه شيخ آخر في المكانة والمعرفة. له قدرة مذهلة على خداع نفسه، يحكي الكذبة، يوشيها بالأضواء والظلال، ويحورها، يصدق ما يرويه وهو يخترعه. تتملكه شهوة الكلام، فلا يتوقف، يتجاوز حتى من يقاطعونه بالمعارضة أو السؤال. ادعى تأليف الوعظ والحديث والتفسير والفقه واللغة والتصوف والنظم. نسب إلى نفسه الجمع بين علمَي الشريعة والحقيقة. زال ما كان في قلبه من الورع. غرق في ظلمة نفسه. جاوز المعارضة إلى تسخيف الآراء التي تخالفه، والبحث عما يدينها. يفتش في كل من يعرفه، حتى أصدقائه المقربين، على ما يأخذه عليه، ما يحتفظ به في ذاكرته، فيخرجه في الوقت المناسب، فعل سيئ، علاقة مشبوهة، بيئة تجاوزها. إن وجد في الآخر نقطة ضعف، حرص أن ينفذ منها بكل السبل، لا يمنعه حتى الاعتداء البدني، أو القتل.

الطاعة واجبة على من يبايع الشيخ، ويتتلمذ على يديه، يسلم له في كل أمور حياته. يتقيد بعدم المجادلة، أو الاعتراض على أفعال الشيخ، حتى لو بدت غامضة، والالتزام بالورد اليومي للطريقة والذكر، ما دام شيخه مستقيمًا على طريق الحق. يكون تحت تصرفه، وطوع إرادته. لا يتيسر الطريق والفيوضات إلا على يد شيخ الطريقة، عرف الاهتداء إلى الله، وصلاح النفس، وتزكيتها.

الندم لا يجدي إن أصم المريد أذنيه عن سماع كلمات شيخ الطريقة. هو غير جدير بأن يفرق بين الصواب والخطأ، الحلال والحرام، ما يحسب لشيخ الطريقة، وما يحسب عليه. تشابكت الخيوط في ذهنه، لا يشغله — في أسئلته — تلقي الإجابة الصحيحة. يستهدف إرباك شيخ الطريقة، يتعمد أن يعلو صوته على صوت الشيخ، بما يدفع الشيخ إلى إعادة كلماته، ويضايق المريدين.

وجد في كلمات شيخ الطريقة ما يثير الضجر والملل. غضب من نصحه وإرشاده. أخذ عليه استبداده بتدبير الأمور. ألم يكن رسول الله يشاور أصحابه في الكثير من الأمور؟

دلس عليه، فنسب إليه ما لم يقل، وعرض أفكاره في صورة شوهاء، وعلا صوته بالسؤال: هل يُحل الله لشيخ الطريقة ما لا يحل لغيره؟

يرى أنه أحق بالمشيخة من الشيخ سالم غيث. يعرف ما لا يعرفه أحد من أحوال الموت والبعث والقيامة والصراط والجنة والنار. يعرف من علوم الشريعة أكثر مما يعلمه شيخ الطريقة، عاب على جلسائه أنهم لا يُعملون العقل في تعليمات الشيخ سالم غيث وأوامره. صارحهم بأن عظات الشيخ لا تنفذ إلى روحه، ينساها — بعد انفضاض الحضرة — كأنها لم تكن.

اتبع هواه، ومال إلى الضلال. قرب إلى نفسه مريدين يستثقلون الطاعات، ويستحلُّون الآثام. أوهمهم أنه لا يخطئ، فقلدوه في الزيغ والبعد عن الجادة. اقتصر عالمه على المخالطة والتآمر وأفعال الشر. تواكل مريدي الأشعل يسَّر له السيطرة عليهم، وامتلاك الحل والعقد. تملكه أسوأ ما في النفس من كبر وغضب وحقد ورياء وغرور، وحب للجاه والرئاسة والمنزلة. وسوَّغ لنفسه الشهوات. تخطى آداب الطريق، فلا نملك له إلا الدعاء بالهداية.

أمر الأشعل مريدين، استمالتهم كلماته، أن يسجلوا ما يحدث في حجرة شيخ الطريقة وخارجها، حتى ما تعبره النظرات، أو يبدو عفويًّا، قد يكون المفتاح لأسرار غائبة.

ألف — بالابتداع — أذكارًا تختلف عما تؤديه الطريقة، أوهم أتباعه أنه أخذ تلك الأذكار من الحضرة الإلهية، ومن حضرة الرسول، ومن الخضر. هي غير مشابهة لأذكار الطريقة الكناسية الأحمدية، والطرق الأخرى، وأورادها.

جعل لأتباعه امتيازات لم يحصلوا عليها من قبل. شوشروا على الناس، حتى ضجوا من أفعالهم.

هل يحل الله لوليه — إن تصور في نفسه الولاية — ما لا يحل لغيره؟

قال الشيخ صالح جاد الرب: يتصور الأشعل أن الملف هو المفتاح الذي يفتح كل الأبواب.

وأطلق تنهيدة مفعمة بالاستياء: يريد أن يبتلع ما هو أكبر من قدرته على الهضم؟!

أضاف في استيائه: الشجرة اليابسة لا تثمر.

ثم وهو يكور قبضته: عافية الشجرة تأتي بتقليمها.

العيش في منازل السالكين

قبل أن ينتصف النهار، عدت إلى مشيخة الطريقة الكناسية الأحمدية.

ربت الشيخ صالح جاد الرب كتفي: قم معي، سنلتقي مولانا شيخ الطريقة.

هو على يقين أن من لا شيخ له، فالشيطان شيخه. حتى لو استقام على طريق الحق، فإنه مثل الشجرة التي لم يغرسها غارس، إن أورقت لم تثمر، وإن أثمرت خلت ثمرتها من المذاق اللذيذ. الشيخ سالم غيث أستاذه، شيخه، أخذ على يديه العهد، أن يسير سيرته، ولا ينقض العهد. هو يتحرك، يسأل، يجيب، وفي وجدانه أن شيخه معه، يفيد من كلماته وتعاليمه. المريد يسلم لشيخه بكل ما يقول، ولا يرد عليه كلماته، يتأسى به في سائر أحواله، يلجم لسانه — في حضرة شيخ الوقت — بالصمت، يخضع للهيبة، يلزم السكينة والوقار.

ربط نفسه بالشيخ، هو كل شيء في دنياه. يخلف شيخ الطريقة في غيابه، يقضي بما يحتاج إلى الفتوى، أو الرأي، أو النصيحة. ما يتطلب العرض على شيخ الطريقة، يحمله إليه، أو ينتظر قدومه إلى بيت الصوفية. لا أحب أن أفتي فيما لا أعلمه، ولا أهرف بما لا أحيط بكل جوانبه. يثق أن انقياد المريد — مهما تعلو مكانته — لشيخه، واجب ينبغي الحرص عليه. لا يناقش، يمتثل لأوامر شيخ الوقت، يجتنب نواهيه، بالكلام، أو بإيماءة العين.

لا أحد — في غياب الشيخ — يدخل حجرته، تظل مغلقة، يحتفظ عم حمود بمفتاحها، لا يسلمه إلا إلى شيخ الطريقة، أو الشيخ جاد الرب.

الحجرة في الطابق الأرضي، منفصلة عن بقية حجرات البيت، لها باب مستقل، يفضي إلى الشارع الخلفي، يستقبل فيها شيخ الوقت زواره من الرجال، ونافذة حديدية صغيرة، يستطيع الواقف وراءها أن يتعرف إلى من بالخارج.

هذا الرجل يعرف ما لا يعرفه الكثيرون — ولا أعرفه — من علوم الألوهية والرياضة والروحانيات والتنزيل والتأويل والفقه والسنن والأحكام والزهد والتصوف والروايات والتراجم والسير والأخبار. يعرف كذلك ما يغيب عن أفهام الكثيرين من علوم القياسية والبرهانية والجدلية والكيمياء والحيل والسحر. لم يترك كتابًا بلغته يداه من كتب الحكماء والعلماء والفقهاء والفلاسفة إلا حاول أن ينقل ما فيه إلى دماغه، يستوعب مفرداته ودقائقه وتفصيلاته. صفت نفسه من شوائب الماديات، فهو لا ينشغل بغير العبادة، والتقرب إلى الله. همه رؤية اللوامع والبوارق والنوازل واللوائح والطوالع. يدعو الله أن يضيء قلبه بأنوار اليقين. اليقين هو إيمان المرء بالتوحيد والإخلاص والصبر والتوكل والشكر. معرفة الصوفي يقينية، لأنه يأخذها من عين اليقين. يطيل جلساته في الخلوة، يتلقى فيوض المعرفة الإلهية.

هذا الرجل، قدوة الواصلين، خلاصة الصالحين من أولياء الله. جاهد النفس، حاربها بالجوع والعزلة والسهر والزهد في الدنيا والانقطاع عما تزينه العينان للنفس، فتتمناه. لم ينتقل من مقام إلى آخر، حتى بلغ الكمال في المقام الأول. يكثر من الاستشهاد بالقرآن، وأحاديث الرسول، والموازين الشرعية، وتفاسير العلماء، وأدلة العقل. يرنو ببصيرته إلى الملأ الأعلى.

روى جدي الذكريات عن مشيخة الشيخ سالم غيث للطريقة، وروى أبي ما يخص تلمذته على يدي الشيخ، رعى مريديه بما لم يعهدوه في مناقب الأقطاب الذين سبقوه. ثبتت في ذاكرتي حكايات من مريدين في الطريقة — عن مناقبه، تعددت الروايات عن مناقب، نسبت — وتنسب — إلى شيخ الطريقة من زمن بعيد. يجعل من مريديه أصدقاء، أحباء، يترك لهم فرصة، فهم ما يرون ويسمعون، لا يكون المريد في حضرة شيخه كالميت بين يدي مغسله.

أول ما يحرص عليه أن تخلو النفوس من كدورات الطبع، وظلمة الحس، يضن بالعلم أن تداخله تحريضات وتلميزات وشتائم. يطلب من المريد أن يكون عالمًا بالكتاب والسنة قدر طاقته، يحرص على طهارة الباطن بكثرة الاستغفار، والتوبة، والإنابة، والرجوع إلى الله، واتباع تعاليم الكتاب والسنة. حتى الذكر الذي حدد الشيخ أداءه في جلسة ما، يجب على المريدين أن يلتزموا به، لا يجاوزونه إلى أذكار أخرى، إلا إن أذن الشيخ.

أصيخ السمع جيدًا، فلا يفوتني شيء من عظاته. أغمض العينين، وأنصت. أركز على الإنصات.

جاوز شيخ الوقت ما التزمت به الطريقة من إصاخة الأسماع جيدًا، فلا يغيب شيء من كلماته، عدم مناقشة العظات التي تصدر عن الشيخ، ولا التعليمات التي يرسم بها

خطوات المريدين. مشيخة الوقت أعلى درجات الوصول والقرب من الله، يصغي إلى نداء الحق، يتأمل — بعيني البصيرة — جلال الحضرة الربانية. لا يتبحر الشيخ في الأصول والفروع إلا ما تصح به طاعة الله. يخاطب الناس بما يعقلون، ويسهل فهمه. يشغله أن يفهموا من عظاته ما تطيقه أفهامهم. هو يأذن بالسؤال فيما يغيب عن الأفهام، ويجيب بما يمتلك من العلم الشرعي والتعاليم والتوجيهات والنصائح، وما في قلبه من المحبة، محبة تفيض عن أعداد المريدين، تسع كل خلق الله.

عهد إلى الشيخ صالح جاد الرب بإرشاد المريدين، وجمعهم على فعل الخير والطاعة. هو الواسطة بين شيخ الطريقة والمريدين. يوصي المريدين أن يتطهروا من النجاسات قبل بدء الحضرة، تهيؤًا للمثول بين يدي الله. خصص بعد صلاة العصر، في الثلاثاء من كل أسبوع، لرواة القصص الديني والحكايات والسير والقصائد والموشحات والتسابيح والإنشاد والابتهالات والأدعية. تضيق القاعة بزحامهم، ينتقلون إلى الساحة الصغيرة أمام البيت. عمله — بإرشاد شيخ الطريقة — تسليك المريدين، إدخالهم في الطريقة، تلقينهم الأذكار الخاصة والأوراد، توجيههم، تقديم المجاهدة، الاجتهاد في محو الصفات الرديئة، قطع العلائق بكل ما هو ذميم، حضهم على العمل الصالح، والحب في الله.

أعطاه الشيخ حق المصافحة، وحق إعطاء العهد، العهد قبول من المريد لما يفرض عليه من واجبات، التسليم الكامل لشيخ الطريقة، والالتزام باتباع تعاليمه، وطاعته، وأعطاه الشيخ حق الإجازة للمريدين، ينوب عنه إن تخلف عن الحضرة، يعرف تفصيلات يوم شيخ الطريقة، منذ الصحو إلى لزومه الخلوة.

اهتدى بهدي الشيخ سالم غيث، جعله القدوة الصالحة للوصول إلى طريق الله. اقتدى به في أقواله وأفعاله وأحواله. اعتقد في كل ما يتصل بالشيخ من الآراء والأقوال والأفعال. رفض الاعتراض في القضايا نفسها، حتى بالباطن، أو الغيبة.

وافقه صمت الشيخ سالم غيث على أن الغناء والسماع مقام للوصول إلى الله، ما يقتضي المجاهدة لبلوغه، وبلوغ مقامات التوبة والورع والزهد والحب والشكر والرجاء والفقر والصبر والتوكل والرضا. أذن للمريدين باستخدام الطبلة والدف والعود. رفض الآلات النحاسية، لأنها لا تليق.

يأخذهم السماع، يتواجدون، يشطحون، يتحركون، يتراقون على صوت المنشد، أو تناغم أصوات المنشدين.

قال الأشعل في لهجة محذرة: انحلال الشهوات والرغبات الجنسية، مصدره الأغنيات والسماع.

قال الشيخ سالم غيث: ألقي سيدنا إبراهيم في النار فظل على إيمانه.

عرفت أن الأشعل هو اليد التي تحرك الخيوط، هو الذي دبر ما حدث في شاطئ الأنفوشي، هو الذي دبر استدعائي إلى نقطة الشرطة، هو الذي دبر لقائي الرجل الأشقر في ميدان المنشية.

لما أبلغ الشيخ جاد الرب شيخ الطريقة بأفعال الشيخ محسن الأشعل، وشى صوت الشيخ سالم غيث بالحزن: لو أني أعلم أنه سيرتد عن الطريقة ما كنت أعطيته العهد.

رفض اقتراح جاد الرب بأن يفصل الأشعل من الطريقة: عندما يواجه الشيخ آراء تلاميذه بالعنف، فذلك دليل على أنه لا يملك تبريرًا لأفعاله.

استعاد سرحة في الأفق: الله يرى كل شيء، سنقف جميعًا بين يديه يوم القيامة.

الحضرة الأسبوعية يوم الثلاثاء، عقب صلاة العصر.

لم يكن يتيح مجلسه إلا لخواصه من العلماء وكبار المتصوفة والفقهاء والعلماء والمحدثين، يتبادلون الآراء والنصائح والمواعظ. يغادر حجرته إلى القاعة، أو إلى مسجد، يحضر مجالسه حتى غير مريدي الطريقة، يحرصون فلا يفوتهم شيء مما في كلماته، كأنهم وضعوا آذانهم في أعينهم، فهم يبصرون كلماته. ينهي — وقت أحاديثه — عن الكلمات الداعية والمستغيثة، وعن البكاء والنحيب والحركات العنيفة. يعظهم، يفسر آيات القرآن، وأسرار الأوامر الإلهية، ورموز الكتب المقدسة، وشرائع الأنبياء. يستشهد بأحاديث الرسول، يروي التراجم والسير، يتحدث في غرائب العلوم، ودقائق الإشارات، وعجائب الأسرار. يشير إلى حظوظ أهل الأرض من نظام الكون، ومن علوم الأفلاك والبروج والكواكب والنجوم والأركان، يكشف ما يحيط به علمه في طبقات الناس والحيوان والنبات والأرض والسماء والماء والنار والهواء والشمس والقمر والغابات والحقول والأنهار والبحار والجبال والمعادن، يستعيد ما لم يعشه المريدون من الحروب والثورات والجدب والقحط والمجاعات وانتشار الطاعون والزلازل والأوبئة، تبين الكلمات عن علمه بالطبيعة، وما بعد الطبيعة. ترتجف شفتاه في أحاديثه عن كسوف الشمس، خسوف القمر، سقوط النجوم، انطفاء الأنوار، غياب الشهب في أماكن لا ترى، انسدال الظلمة. ما يلي ذلك من البعث والحشر والميزان والصراط والحساب والجنة والنار. تطرق إلى العلوم الإلهية التي ربما غمضت عن الكثير من العلماء والصالحين. يتكلم عن حقائق الموجودات العلوية، والسفلية، والعرش، والكرسي. أضاف إلى حصيلته المعرفية، وعلمه، ما يسر له — في يقظته — مشاهدة الملائكة وأرواح الأنبياء، يسمع أصواتهم، يحاورهم، يأخذ منهم فوائد تعينه في حياته، وفي أمور الطريقة.

يعرف للمريدين قيمتهم، كثرتهم هي التي أنشأت الطرق، والفرق، وجعلت لكل شيخ مريديه. الفرق هي كثرة المريدين، وليست إرادة الشيخ، يحرص على الكلمات التي يسهل فهمها، يخاطب الناس على قدر عقولهم، ينطق الكلمات التي يأخذ الناس بظاهرها، يحيي أموات القلوب في ناس بحري. يطيب نفوسهم، يدعوهم، وعامة الحضور، إلى الحرص على تنقية الحق من الباطل، والصواب من الخطأ، والضار من النافع، وقضاء الحاجات، والسعي إلى العلم والحق والخير والنور. يكرر القول إن الدين لا يغني عن العلم، والعلم لا يغني عن الدين، لا قيمة لأي شيء إن اقتصرت حياتنا على أحدهما.

تمتد عظاته إلى السياسة، يتكلم عن الملوك والرؤساء والقادة والناس العاديين، لكنه لا يتخذ موقفًا سياسيًّا، يناقش، ويحلل، ويوضح، فلا يعبر عن ميل أو رفض، هذه هي الصورة كما أراها، أما رأيي فأنا أحتفظ به.

اجتمع المريدون معه على الكتاب والسنة. الطريقة تسد على الخلق، ما لم تقتف أثر النبي. يعبرون المقامات والأحوال والأذواق إلى حقيقة المعرفة، وصفاء التوحيد.

وأنا أتهيأ للسير وراءه، همس الشيخ صالح جاد الرب في أذني أن يكون أول ما أفعله مصافحة شيخ الوقت، تقبيل يده، لا أثبت نظري في عينَي الشيخ، لقاء الشيخ ذكر، والتأدب في الذكر شرط إتمامه.

مد شيخ الوقت ساعده لمصافحتي، حتى لا ألامس يده المبلولة بماء الوضوء.

احتوتني هيبته: قامته الطويلة، الأقرب إلى الامتلاء، التجاعيد الخفيفة أعلى الجبهة، وأسفل العينين، وحول الفم، الحاجبان الأبيضان، النظرة المحدقة فيما يصعب تبينه، الهدوء الذي يسم عظاته وتصرفاته، الشارب المحفي، الذقن الذي صبغه بالحناء، وإن أهمل تشذيبه. يرتدي عباءة ذات حواف فضية، فوق قفطان تلامس أكمامه أطراف الأصابع. يدير الحزام الأخضر العريض حول خاصرته. ويضع على رأسه عمامة بيضاء هائلة، ويدس قدميه في خف مغربي. يأمر بإشارة من رأسه، أو عينه، أو يده.

لم تتغير ملامحه كثيرًا عما أذكره في صباي، أجلس في الصفوف القريبة من دكة المبلغ، أتابع إيماءات الرأس، وإشارات اليدين، والصوت متعدد النبرات.

من كان هو ما أراه الآن، هو شيخ الصوفية، شيخ الوقت سالم غيث.

عرفته في روايات أبي، قرأ الشيخ بيومي الجارحي — خادم زاوية ميعي — سورة الفاتحة في أذنه عند ولادته. وجد أبوه في قراءة الشيخ ما دفعه إلى نذر الطفل للدين. أدخله الكتاب، ثم ألحقه بمعهد الورديان الأزهري، إلى نهاية الدراسة. تبدلت حياته بوفاة أبيه، خلفه في إدارة الوكالة بشارع الميدان. شاهده أبي في سني جلوسه داخل الوكالة، كرسيه

إلى جانب الباب الرئيس، أوامره، تنبيهاته، تحذيراته، تلاحق عمليات النقل من الدائرة الجمركية، وإليها.

تابع اختراق الجلوات من ميدان أبو العباس — عبر شارع الميدان. إلى جامع الشيخ، ومواكب الجنازات في الطريق إلى مقابر العامود. شغله التعرف والتأمل والتعجب والولع والتشوف والتطلع والتعلق والتتبع والتآلف والود والمحبة والعبادة والذكر والصوم والقرب والزهد والورع والفناء والمجاهدة والسياحات الكثيرة.

أزمع أن يتخلص من هوى النفس. أكثر من التوبة والاستغفار. تطهر من الغفلات، وذاق حلاوة الإخلاص. سكنت نفسه روحانية. جمع همته في التوجه إلى الله تعالى، امتثل له بالكلية. امتلأ من عظمة الله. آثر إنهاء تجارته، نزع البدلة، استبدل بها الجبة والقفطان والعمامة، اعتزل الناس، انقطع إلى عبادة الله في حجرة داخل بيته، يخلو فيها إلى ربه ونفسه! وقراءاته، وإن تحققت له صلات روحية بأهل الطريق. سلك طريق الرياضات والمجاهدات. سعيًا لمحل مراتب القرب، مقام العارفين، مقام المشاهدة، مقام خاصة الخاصة، ينكشف له ما يناسب درجة الترقي. أخلص ليبلغ مقام العالمين، سبيله البحث والنظر والسؤال والتقصي ومحاولة الإثبات.

ارتقى المعارج، يخلو إلى التأمل والتفكير، يغيب عن الناس، وعن كل ما حوله، تعلو الروح عن كل ما يقيدها، تنطلق في فضاءات لا مرئية، يتحقق وجودها مع الله.

علت سن الشيخ حمزة أبو الحسن، فتهيأ لاعتزال المشيخة.

قال للشيخ سالم غيث: تعب من سبقوني، ولحقتهم بالتعب. لم يعد لدي ما أفعله.

ثم وهو يحاول إخفاء نبرة الأسى في صوته: حاول!

أخذ العهد والمبايعة من الشيخ في سلوك الطريق. شيخ الصوفية هو المرشد إلى الطريق الذي يجب السير فيه، طريق حكم القرآن والسنة في جميع الأحوال والأقوال والأفعال.

اكتملت ولايته بما أضافه إلى عاداته من العزلة والصمت والجوع والسهر. حاله الزهد، والعزوف عن الدنيا، وقطع العلائق بها. يخالطه الناس، يرونه بظاهره، لكنه حقيقة تظل مخفية عن الأعين، ستر الله أحواله عن نظرات الناس، فهو معهم بجسده، وفي رحاب السموات بقلبه. هام في حب الله، ينتظر الشوق إليه، لم يكن يبالي إن اعتبر الناس أفعاله لصالحهم من الكرامات.

أوكل للشيخ سالم غيث وراثة مشيخة الطريقة. واصل سلوكه في مدارج العارفين حتى مكانة شيخ الوقت.

لم يكن من عملي نظافة بيت الصوفية: قاعته وحجراته وأثاثه ومكتبته وسجاده وحصيره، ما يحتاجه من الشموع والبخور والمقشات والقدور والأوعية. تغيب عم حمود لمرضٍ ثلاثة أيام، حاولت محاكاة ما كان يفعله العجوز ذو الوجه المتغضن، والعينين الذابلتين، والخدين الغائرين، والملامح الأميل إلى الحزن.

أول ما يفعله — كل صباح — التقاط نسخة «الأهرام» من بسطة الباب، يضعها على طاولة للشيخ صالح جاد الرب، يتصفحها قبل أن يضعها على مكتب شيخ الطريقة. ينظف القاعة، والغرف الملحقة، يفرد الحصير والسجاد، يرتب الكراسي والطاولات الصغيرة. يهمل المواضع الخالية، فالملائكة تشغلها، تشارك المريدين أداء الذكر، بما يحفزهم إلى المواجيد والتجدد والأذواق والمعارف واستغراق المشاعر والإشراقات الروحية. يتصدر المكان كرسي شيخ الوقت، هو وحده الذي يجلس عليه. عدا الشيخ جاد الرب، لا أحد يؤذن له بالجلوس على كرسي شيخ الطريقة. أهم ما يحرص عليه وعاء البخور النحاسي، يضعه في منتصف القاعة تمامًا، تتضوع منه روائح البخور والمسك والصندل والعنبر. يتمدد تحت العمود القريب من باب الدخول، يضع ساعده تحت رأسه، يغلق عينيه، يتظاهر بالنوم، بينما يصغي إلى كل ما يدور حوله.

لم يكن يبدِّل جلبابه الزفير المخطط في الشتاء أو الصيف، إذا نزعه فلغسله، ويرتديه بعد أن يجف، يبدو مغسولًا، مكويًّا، في معظم الأوقات.

أعتذر عن قبول جلباب من الشيخ جاد الرب: اعتدت جلبابي.

علت شفتَي الشيخ بسمة إشفاق: عم حمود لن يرتدي جديدًا إلا عندما يلفونه في قماش الكفن!

لما أتعبه ظهره، ترك عمله عتالًا في الميناء، يحمل سفن البضائع، ويفرغها. عهد إليه الشيخ صالح جاد الرب بأمر بيت الصوفية. كأنه اعتاد تنفيذ الأمر، لا يسأل، ولا يناقش، ولا يقدم على شيء إلا أن يأمره الشيخ.

تراجعت لاصطدامي بأرفف المكتبة الخشبية، وتناثر ما عليها من كتب وأوراق.

الملف مثل مجلد قديم مهترئ الغلاف. خضرة غلافه بلا عنوان يتوسطها، ولا عناوين فرعية، لا أذكر إن كانت تلك هي صورته حين أودعته يد الشيخ جاد الرب، شغلني ما يضمه من أوراق أدركت قيمتها في تقليب الشيخ، نظرته المتفحصة، تحذيره الهامس، الخائف، من الأعين المتسللة.

قلبته.

استعصت قراءاتي لما سود صفحاته من الأرقام، والحروف الغريبة، والعلامات، والعبارات غائبة المعنى، والجمل الناقصة، وغير المترابطة.

حذرني الشيخ صالح جاد الرب من أن أعيد على أحد رواية ما حدث.

هذا سر ليس من حقك أن تبوح به لنفسك. لم تجد في الملف ما تفهمه، فأتيت به. من واجبي أن أقدمه إلى شيخ الطريقة، هو الذي يحتفظ به، أو يقرر ما يشاء.

تخلى الشيخ سالم غيث عن انحناءته، أغلق الدرج الصغير أسفل الكومودينو، وتنهد: أوراق من أحزاب الشاذلية.

– والملف؟!

وغلبني انفعال: الشيخ صالح جاد الرب وضع الملف في الدرج.

وتخللت شعري بأصابعي، أحسست تلبده بالرطوبة: ابحث جيدًا.

أهملت تغير سحنة الشيخ سالم غيث، ونظرات الغضب في أعين المريدين. أمسك ساعدي، ومضى بي إلى حجرة جانبية.

– الملف في يد قوي أكبر مني ومنك ومن الجميع.

– الشيخ صالح طلب الملف، وأعطيته له.

قال شيخ الطريقة: تصفحته، مجرد أوراق مليئة بالطلاسم والرموز.

همس بنبرة مشفقة: إنهم لا يريدون الملف، بل يريدون صمتك!

العين الراصدة التقطت تفصيلات اللحظة: سقوط الملف على أرضية الحجرة، انتقاله من يدي إلى يد الشيخ صالح جاد الرب، خضوع الأشعل للتصور بأن المضمر سيبين، ينكشف الشطح والرموز والإشارات والألغاز والأسرار والرؤى الغائبة، في قراءة ما بداخل الملف من أوراق.

تمنيت لو أن كل شيء من حولي يتغير، أعود إلى ما قبل بيت الصوفية، أظل في شونة ستاني، لا أتركها، ولا يشغلني احتمال ما.

– قلت وأنا أشير إلى نفسي بأصابع مضمومة: أنا لم أتكلم.

شابَ صوته الهادئ تغيُّر: هذا ما يخشونه.

– لماذا الملاحقة إذن؟

– يتصورون مثلما تتصور أن الحصول على الملف غاية كل شيء!

إنهم يلاحقونني بما لا أستطيع رده.

– إذا أعلنت عجزك فسينقشعون كسحابة عابرة.

وجاوزني تهيؤًا للصلاة: انسَ الملف الضائع، اصنع لنفسك ملفك الخاص، عد إلى ما تعيشه، وليس إلى ما عاشه الآخرون.

علا صوته وهو يتثبت من موضعه في مقدمة المصلين: استقيموا يرحمكم الله.

تلاصقت الصفوف، وتلامست الأكتاف.

تعالى صوت شيخ الوقت: الله أكبر.

وبدأ الصلاة.

ربما لو أني تركت بيت الصوفية، فستطالعني حياة جديدة، لا ترتسم في مخيلتي بملامح محددة. أبتعد عن كل ما يحيط بي، ألوذ بنفسي، أخلو إليها، لا أعاني التلفت.

قبل أن أخطو إلى خارج البيت، لحقني الشيخ صالح جاد الرب. أمسك ساعدي، وهمس بلهجة مترفقة: هل ستظل في حيرتك؟

تقافزت الكلمات في فمي، لكنني لم أعرف كيف أنطقها، كيف أعبر عما بداخلي، فلا يساء فهمي.

حثني على الكلام بنظرة صامتة.

غلبني القهر: المطاردة هي ما أعانيه.

وهو يدفع بي إلى خارج البيت: أنتظرك غدًا في صلاة الظهر.

هذا ليس خادم المصباح

بدا — عقب الصلاة — في موضعه، كأنه لم يغادره. أصابعه تكر حبات المسبحة، ونظراته تشرد فيما لا أتبينه.

ظللت بالقرب منه حتى غادر آخر المصلين، لم يعد إلا الصمت، يعمقه — عبر الباب المفتوح — ترامي أصوات الطريق، وتضوع شذا البخور النفاذ، والحصر المفروشة والسجاجيد المعلقة على الجدران، وأزيز المراوح في أركان القاعة. ظل البنايات العالية — قبالة البيت — غطى الشارع برمادية شاحبة، هبَّات الهواء الساخن، المحملة بالرطوبة، تأتي من ناحية البحر.

قال: استأذنت مولانا الشيخ سالم غيث فيما سأحدثك عنه. لا نرضى أن تنفق عمرك فيما لا طائل من ورائه.

أفرغ ما تبقى من كوب الشاي في فمه دفعة واحدة: لا تقاطعني بأسئلة. ربما تجد الإجابة قبل أن تسأل.

وزادت حركة أصابعه في حبات المسبحة: هذه الأوراق لا يقوى على الإحاطة بما فيها إلا من خصَّته السماء بما يغيب عن معارف الآخرين وأفهامهم. في الأسرار الإلهية ما يظل مخبوءًا، لا ينكشف إلا للأنبياء والرسل، والمختارين من أهل الأديان السماوية؛ من يمتلكون الإيحاءات، فيض العاطفة، وشطحات الجذب، والإلهامات العلوية.

ما يشغل الشيخ محسن الأشعل مكانة شيخ الوقت، الذي تخضع الطريقة لتعاليمه وأوامره، تدبيراته تقف عن ذلك التمني، لا تجاوزه، لا يتصور الخطوات التالية، ولا يعد لها نفسه، هو الأولى بالمشيخة، دون أن يتبين حقيقة نفسه. هو مثل الغيم الجاف، لا يحمل مطرًا.

من يسلك طريق الصوفية عليه — بداية — أن يتخلص من الشوائب وآفات نفسه: الأهواء والشهوات والحقد والحسد والطمع والأثرة والغل والحظوظ. إذا عرفت الله فسيعرفك، يجيبك إلى ما تطلبه. لم يبلغ الأئمة الكبار، أقطاب الصوفية، مكانتهم، إلا لأنهم عرفوا الله تعالى، فعرفهم، وفاض عليهم بالرؤى والمكاشفات.

أعد نفسه بالتوبة والتقوى والاستقامة والصدق والإخلاص والرياضات والمجاهدات، أقبلوا على الله تعالى، انشغلوا به، وأعرضوا عما سواه. من يعرف الله يأته الفضل الإلهي بغير حساب.

أقسى الأمور أن يتخذ المريد شيخه سلمًا لارتقاء الدرجات الصوفية. المراتب ليست وظائف تصعد فيها — دون تقيد بالوسيلة — من درجة إلى أخرى.

تصور ما في الملف أجوبة عن أسئلة، لو أنه عرفها فسيسبق الصوفية، وكل السلف الصالح والأولياء والأئمة والأقطاب والأبدال والنقباء والأوتاد والأنجاب والمريدين. لو أنه سبق الشيخ سالم غيث لتيسَّرت مشيخة الطريقة.

تصور الأشعل أنه سيحصل من مشيخة الطريقة على ما تطمح إليه نفسه، يدلك الخاتم السحري، يأمر الخادم بما يشغله تحقيقه، فلينظر إلى شيخ الطريقة الحالي (وأشار ناحية الحجرة المغلقة) ومن سبقوه، هل أفادتهم الطريقة، أو أفادوا منها؟

دخل الطريقة على طمع، حاول أن يجعل منها، ومن الطريق الصوفي كله، مغنمًا، يعمر دنياه، ويلغي آخرته. ترك السعي في طريق الصوفية إلى بذل الجهد في مجاوزة قواعد الترقي، وطلب الرئاسة، دون أن يعدَّ نفسه بقمع شهواتها، ونزوعها إلى فعل الشر. يبتعد عن رحاب السماء، ويسقط في حبائل الشيطان. كره للشيخ سالم غيث مكانته، وكثرة مريديه. شغله التعرف إلى المنازل التي يجب أن يقطعها حتى يصل إلى المشيخة، جعل همه الكشف عما تصور أن الطريقة تحويه من الخفايا والأسرار والبواطن. يسأل لا ليفهم، وإنما ليتصيد الأخطاء، أو يختلقها. تجسس على شيخ الطريقة، واغتابه، وسعى إلى تأليب المريدين عليه، والخروج عن أوامره ونواهيه.

شردت في لقائي المرأة …

لن يعود الأشعل إلى ابتزازي بحادثة الأنفوشي. باحت المرأة بدورها في المكيدة، ألقت نفسها داخل شبكةٍ غزَلها الأشعل، حتى أكشف موضع الملف.

لا سر أخفيه.

إن أشار بإصبعه ناحيتي، فستعود أصابع يده الأربعة إليه.

قال في صوت متلكئ النبرة، ربما ليستعيد انتباهي: الأشعل يلقي بذوره في مياه البحر.

لو أنه أحسن التأمل، فسيلحظ عدم تأهل قدراته لما يطمح إليه. يعجز عن الأخذ بالأسباب، والقيام بالشروط والواجبات، أخذًا بأحوال القلوب، وصفاء الباطن. تعددت مؤاخذاته على أولياء الله تعالى، وعلى الأبدال والأقطاب والنقباء والأنجاب.

وجد في علم الشيخ سالم غيث ما يبتعد عن القرآن وصحيح السنة. أخذ عليه تصرفات تخالف صحيح الدين. المعارضة جزء من أفعاله. ربما اعترض على الرأي، أو رفضه، قبل أن يكمل محدثه عبارته، تختلج ملامحه، تشي تعبيرات يديه بمعنى الرفض. لا يملك إلا غيرة عاجزة، تحثه على فعل الشر، يجادل فيما لا يعرف، يذم ما يجهل، يدَّعي ما لا يحسن، يجحد ما لا طاقة له ببلوغه، يشوه الحقائق، يخلط بين الآراء لعجزه عن فهمها، وعن إسنادها إلى المصدر الصحيح.

شغله الهدف عن وسائل بلوغه.

زوَّر على شيخ الطريقة مسائل كثيرة، عمد إلى الرمز والغمز والتورية بما يشي بعدائه للشيخ سالم، وللطريقة. نسب إلى نفسه رفع التكليف، وهو معنًى خاطئ أحزن شيخ الطريقة سماعه، خصص عظة لتوضيح الخطأ، نسب الأشعل إلى نفسه، أو أن أتباعه نسبوا إليه، رفع التكليف. المعنى الصادم أنه لا يؤدي فرائض الدين، لا يصلي ولا يصوم، ولا يزكي، ولا يسعى إلى الحج. المعنى الحقيقي هو أداء الفرائض، بحب، وبلا تكليف. أوهم مريديه أنهم أفضل مريدي الطريقة، وأفضل الصوفية، آخرتهم — وحدهم — هي الجنة. قصور معلقة في السماء، تطل على الكون الفسيح، الشمس الدافئة التي لا تغيب، الحدائق، الروابي الخضر، الثمار دانية القطوف، الحور العين بحضورهن الزكي، الخدم الصغار يطوفون بالطعام والشراب والحلوى، يغيب ما يطرأ على حياتهم من الجوع والظمأ.

لو أن الشيخ الأشعل استسلم لضعف نفسه فسيواصل الاندفاع في المنزلق.

قوام الصوفية تهذيب القلوب، تصفيتها من الشوائب، تحليتها بالفضائل، فتتهيأ لتلقي فيوض الإلهامات والمكاشفات والمحبة والرجاء والفرحة والشكر والذكر والمراقبة والمشاهدة والأنس بالله.

ظاهر الدين الصلاة والصوم والحج والعمرة وصلاة الجماعة. الصوفية عمل الباطن الذي يرفض الظهور والرياء بالعبادة، ويرجو الله. الطريقة هي الإيمان، والعمل بالكتاب والسنة، وأداء الفرائض والطاعات، والأحكام التكليفية المشروعة، التوبة والتوكل والخوف والرجاء، والإحسان، وشغل الوقت بطاعة الله، وحفظ الحدود، وأداء الشريعة، وتلبية الأمر

والنهي، والزهد، والورع، ومحاسبة النفس، وترك الأهواء والبدع، وتعظيم حرمات الأولياء والصالحين، وأهل الكشف والاختصاص.

كيف يعرف الناس حقائق أنفسهم؟

كيف يبصرون ما يغيب عن أفهامهم؟

ليس كل ما تراه أعيننا، أو تتوصل إليه اجتهاداتنا، يهبنا فهمه دون عناء. قد نعبر الحياة دون أن نفهمها.

رحلة الإنسان — منذ الميلاد إلى ما بعد الموت — سجلت في اللوح المحفوظ، سر إلهي يعجز البشر عن بلوغه. الملف صنع البشر، كتابة البشر، لا قيمة لما يضمه أمام الإرادة الإلهية التي تملك — وحدها — حق الحياة والموت، وما يتخللهما، وما بعدهما من مصير الإنسان، والأرض، والكون، والأكوان.

لا يكفي تواكلية السؤال: لماذا نحاسب إن كانت أفعالنا مكتوبة في اللوح المحفوظ؟!

لا أحد يعرف ما في اللوح المحفوظ الذي يحدد مصير كل إنسان.

حتى الأنبياء والأولياء لا يعرفون ما في اللوح المحفوظ.

ماذا نعرف عن القلم الأعلى، والحجر الأسود، وجبل ق؟

الله هو صاحب المدد، صاحب الغوث، وصاحب النجاة.

إن لم نتيقن من أن الروحانيات تعلو الأمور الطبيعية، فنحن نمضي في طريق مسدودة.

أخشى أن الأشعل يكرر مشكلة الزوج الذي أراد أن يعاقب زوجته، فخصى نفسه.

متى يئوب الرجل إلى رشده، ويظهر ندمه على ما فات؟

الطريق إلى مقام أطلبه

بدأت الظلال في التمدد.

خلفت السيالة ورائي، أسلمت قدميَّ للميدان الفسيح.

الشمس ملأت الميدان، غطت جدران البنايات. الحرارة لاهبة، الهواء يترامي من البحر مشبعًا برائحة الرطوبة واليود والأعشاب والطحالب. أنظر إلى الناحية المقابلة، البيوت والنخيل وأعمدة النور والتند المسدلة فوق الدكاكين والقهاوي. لم يعد لي مكان أذهب إليه. حتى شقة مختار رزق حذفتها من التوقعات بالورقة التي تركها لي على الطاولة الصغيرة «عرفوا باستضافتي لك».

كرمشت الورقة، وأدرت فوقها السيفون.

عرفت أني لن أرى هذا المكان ثانية.

أزمعت زيارته في دكان الأوسطى سباتة الترزي. الباب ذي الضلفتين، الأقمشة وماكينة الخياطة سنجر القديمة والمازورة والسوست وحُق الأزرار والإبر والدبابيس وبكرات الخيط والشماعة الخالية من الملابس.

الشارع صغير يصل بين محمد كريم والكورنيش. وأنا أميل من ناحية البحر، خشيت أن تصدمه زيارتي، أعرف أن الأوسطى سباتة يضيق بزوال الوقت في قراءة الكتب، والشخبطة على الورق، ولقاء الأصدقاء. يتحدث مختار عنه كرجل طيب، يحسن فهم ظروفه، ويهمل الملاحظات. إذا تغيَّر مزاجه، تحول إلى برق ورعد وأمطار سوداء. يظل مختار في صمته حتى تزول العاصفة. تعود العلاقة بينهما إلى ما كانت عليه.

واصلت السيرة طريق الكورنيش.

السماء زرقاء، تناثرت فيها سحب بيضاء خفيفة. النهار مغمور في ضوء الشمس. اختفت ظلال الأشجار المصطفة على جانبَي الطريق. ظلي تحت قدمي، والناس يسيرون

لصق الجدران، أو احتموا بالتندات الشمسية، والبواكي أسفل الطوابق الأولى في شارع محمد كريم.

النسائم القادمة من البحر تتراجع أمام الحرارة اللاهبة، أو أنها تمتصها. تعمق الرطوبة من إحساسي بصعوبة التنفس.

دارت بي الميادين والشوارع والحواري والأزقة، عبرت المفارق والتقاطعات والنواصي، عيناي ترنوان إلى البنايات والدكاكين والقهاوي، تتابعان — في شرود — حركة الطريق: المارة والقعود على الأرصفة وزحام عربات النقل والأجرة والكارو. اختلاط أبواق السيارات واحتكاك الإطارات بالأسفلت والزعيق والصراخ. تترامى روائح التقلية والشواء والبخور والتمباك.

بدا مختار — حين التقيته — سندًا أنتظره فيما أواجهه، لم يعد معي إلا نفسي.

يؤلمني الشعور بالوحدة، وأني ضعيف، الوحدة ليست في العيش بمفردي داخل الشقة، أعيش فيها منذ مولدي. الوحدة تواجهني بما لا أعرفه، تعزلني عما حولي، يؤلمني العجز عن فعل أي شيء. أعرف ما أعانيه، لكنني أعجز عن التفكير ما يجب فعله، فقدت الرغبة في الكلام، يسكت فمي عن قول كلمة واحدة، في الأخذ والرد، إلقاء الأسئلة وإظهار الدهشة. عجزي عن إبداء رأيي يداخلني بمشاعر غريبة. عيناي تتفحصان كل الاتجاهات من حولي، لا أعرف حتى الاتجاه الذي ينبغي أن أسير فيه. حقائق كثيرة طالعتني من قبل، ومضت، دون أن ألحظها، دون أن ألتفت ناحيتها.

الطريق صعب المرتقى، وعر المسالك.

أنا مثل الذي عاش عمره على شاطئ البحر، واقفًا، قاعدًا، ماشيًا، يقتصر فعله على النظر إلى الأفق، وتأمل السفن، والطيور المحلقة في امتداد الساحل، لكنني — بما لم أتصوره، ولا أعددت له نفسي — وجدتني في قلب البحر، أصارع أمواجه، وأتمنى الخلاص.

التخويف إذن ما يحاولونه، فأخبرهم بموضع الملف.

ما الذي يجب أن أبوح به؟

لا شيء!

الملف الذي توهمه الأشعل غاية مقصده، تتبدل بما يتضمنه أمور كثيرة، كان سرابًا في صحراء. لم ينفض اقتناعه بأن الملف يحوي أسرارًا خطيرة، ولم يشر إلى الجهة التي دلته على ما خفي، عدد الصفحات — كما حدده — سبع، يتوسطها متن، هوامشه شروح وتعليقات. اتجهت أفكاره وأقواله وتصرفاته إلى المعنى الذي تصوره.

هل هناك ملف آخر، في موضع آخر، يضم ما يغيب عن الصوفية، ما غمض عن الأذهان من الأسرار الروحية والأنوار الإلهية والقضاء والبسط والفقد والوجد والولاء والهيام والمحبة والتوكل والورع والإجلال والعبادات والأوراد والأذكار والعواطف الحارة والأشواق النبيلة والأسئلة الكبيرة عن معنى الوجود، وما بعد الحياة.

أرهقني التوقع والقلق والخوف. تمنيت أن أغمض عيني، أفتحهما، فلا أرى شيئًا، السكون السادر في بيت الصوفية، تعمقه القراءات والأدعية، تتخلله تطوحات الأذكار، يغيب عن الذاكرة صالح جاد الرب، ومختار رزق، ومحسن الأشعل، وتوقعات التلفت.

لم يعد يجذبني ما حولي، شيء واحد شغلني، وتمنيته، أترك ما أعيشه، ألوذ بالطمأنينة والأمان.

ناوشتني الهواجس القاسية. تمنيت الموت، هو النهاية المناسبة لما أعانيه.

لو أني أمحو من ذاكرتي ما عشته في تلك الأيام القاسية؟!

أعرف عجزي عن السير في الطريق بمفردي، وأني في حاجة إلى من تسبقني خطواته، أتبعه، يطالعني من لا أعرفه، لكنني أتوق إلى لقائه، أروي ما أعانيه، أبوح، أفضفض، أعري ما بداخلي، يهبني إنصاتًا، يزيل — بالنصيحة — ما أعانيه، أطيع نصائحه وعظاته، يرشدني إلى طريق الوصول إلى الله، فأسلكه.

ما قاله لي شيخ الطريقة سر ينبغي الحفاظ عليه. حذرني من البوح بحكاية الملف، أخاف أن ينكشف السر في لحظة ما، لا أتوقعها.

لم يعد يجذبني ما حولي، شيء واحد شغلني، وتمنيت تحقيقه، أسبق المفاجآت، فلا تنتظرني. يصعب استمرار الترقب. بدأ في لحظة سقوط الملف. غالبت ارتباكي، وقلقي، والتوقعات المحيرة. هذه هي اللحظات التي أنتظرها، تعرية السر، الرد على توالي الأسئلة، الإبانة عن التوقعات والاحتمالات والقسمات الغائبة. تملكتني الحيرة: هل ألوذ ببيت الصوفية؟ هل أعود إلى بيت سليم البشري؟

المطاردات تشي بخطورة ما يحمله الملف من أوراق. تستغرقني الأسئلة: لماذا أكتم ما أعرفه؟ هل يستحق الملاحقات التي لا تنتهي؟

لو أنهم عرفوا ما بالملف من حروف متناثرة، ومتشابكة، وأسماء ورسوم وإشارات ورموز، وما يشبه الطلاسم الغامضة، هي مجرد أوراق بلا معنى أفهمه.

تفحصت ملامحه — مدفوعًا بكلمات الشيخ جاد الرب — في تردده على بيت الصوفية: لحيته المخضبة بحناء شديدة الحمرة، تكاد تغطي عنقه، وجهه المسطح الخالي من التعبير،

وإن أطلت من عينيه نظرة حذرة، الطاقية فوق رأسه يتسق لونها مع لون الجلباب. ربما استبدل بها عمامة، يجيد تدويرها، في يده منشة ليف، يهش بها الذباب.

حدثني الشيخ صالح جاد الرب عن باع الشيخ سالم غيث في فهم الإشارات والرموز والحكم والتعبيرات الصوفية، يستطيع — ببصيرته النافذة — أن يجلو ما كان محجوبًا، يبين ما حواه الملف من أسرار. ظاهره مرآة لباطنه. يغمره نور الرضا الرباني، يمتلك القدرة على كشف المستور، ونزع الحجب، ومعرفة الغيب، وتعرية الأسرار.

تتوالى أمواج الهمة في بحر العطايا.

أذكر قول الشيخ صالح جاد الرب: يتوهم محسن الأشعل أنه يعرف كل شيء، لكنه سيتبين غياب أشياء كثيرة.

وهو يداعب شحمة أذنه: إذا اعترف الأشعل بخطئه لمولانا، فإنه سيطلب المغفرة له من الله.

ظللت صامتًا، خشيت — إذا تكلمت — أن تبين مشاعري.

قال: الله — سبحانه وتعالى — يأذن بالشفاعة لمن يرتضيه من الأولياء والصالحين.

وربت كتفي بأصابع مترفقة: ما دمت تشعر أنك على صواب فلا تخشَ شيئًا.

هل الملف هو الذي كان بالفعل؟ هل هو ما أودعه الشيخ سالم غيث موضعه في مكتبة بيت الصوفية، أو أن يدًا استبدلت بالأوراق الحقيقية كلمات لا معنى لها؟

لا شيء يدل على أن أحدًا يعرف ما في الملف، ولا حتى شيخ الوقت نفسه، فلماذا أجر على نفسي — بالصمت — ما يصعب احتماله؟ توقع ضربات لا أملك ردها، ولا أستطيع الفرار منها؟

إن تكلمت، هل يواصلون ملاحقتي؟ إلصاق التهم بي، فأعترف بما لا أعرفه؟!

أتحسس وقع الأقدام ورائي. ثمة من يقتفي خطواتي، يلاحقها. أكتم رغبتي في الجري إلى مكان لا أعرفه، يخلو من الأعين الراصدة، ووقع الأقدام المتابعة، والتوقع والخوف، ما لا أتبينه يحيط بي، يدفعني إلى حيث لا أعرف، لا أملك ما أفعله لرد المجهول.

في بالي ملاحظة الشيخ صالح جاد الرب عن ضعف إيماني، وعدم امتثالي لقضاء الله. قال الشيخ: عليك بترويض جسدك ونفسك حتى تستقيم إلى طريق الله. إذا كان الشيخ جاد الرب قد حذرني من التحدث عن الملف، فلأنه يثق من اكتمال أوراقه. ما الذي أنقصه؟ من بدَّله إلى هذه الأوراق المتناثرة، المتشابكة الكلمات، بلا معنى؟

هل أقاتل الظلال والأشباح؟

أشعر بأني قريب من البيت، فأميل إلى شارع يمضي بي إلى شوارع أخرى، وأحياء أخرى، لا مقصد أتجه إليه، مجرد أن أفر مما أعانيه. أغمضت عيني، فلا تبدو كل الطرق مسدودة. إن لم تكشف الأسرار عن ملامحها فإني ألجأ إلى الخيال، أتصور ما كان، وما ينبغي فعله.

أعيش ما أَلِفته: أتحرك في الشقة، أقلب في الكتب، أشاهد التليفزيون، أنصت إلى جلبة الطريق، وإلى مواء القطط من نافذة المنور، أطل من البلكونة على شارع سليم البشري، أتأمل شروق الشمس، وانسحابها، من واجهات البيوت المقابلة.

تلاحقت في رأسي ومضات متشابكة: مدخل البيت الضيق، البسطة على جانبيها شقتا الطابق الأرضي، السلالم الحجرية المنحولة، النافذة المطلة على شارع سوق السمك القديم، رفع الأذان من مئذنة جامع تربانة، النسوة يطفن بمقام ولي الله كظمان، يكنسن أرضيته، يخضبن مقدمته، باعة المصاحف والبخور على نواصي ميدان الأئمة، مولد المرسي، سوق العيد، نداء الشحاذ الضرير في شارع فرنسا: قصدت باب الكريم، جنازة تخترق شارع الميدان، نداءات الفريشة أمام حلقة السمك، ضوء الفنار الخاطف تهتدي به السفن قبل عبورها البوغاز، إيقاع خطوات بحارة السفن الأجنبية على الأرصفة، طيور النورس تحلق في دوائر، ثم تنقض على الأسماك السابحة على سطح الموج، ولد اقتعد الكورنيش الحجري، ودلى ساقيه في الفراغ، يلتذ برذاذ الأمواج، فأر يطل من داخل صخور المالح دون أن يترك موضعه، قطة تختطف سمكة في فمها، تختبئ تحت طاولة القهوة، أولاد يكتبون بالطباشير على الجدران، صياد أغفى في انتظار جذبة السنارة، حصان يمد خطمه في العلف وذيله يهتز لطرد الذباب، عربة صندوق على ناصية الشارع، تكوم فوقها هرم من حبات البرتقال. قول مختار رزق، وعيناه تتجهان إلى أفق البحر: الحياة وجدت لنحياها، لنستمتع بها.

أعرف الطريق الذي أسير فيه. أخلف ميدان أبو العباس إلى شارع الموازيني، ومنه إلى شارع حافظ باشا، أخطو ناحية سليم البشري، دون أن أتلفت، أفتح باب الشقة، تحتويني ألفة المكان، أستعيد — بالنظر ناحية شباك المنور — مواء القطط في الطابق الأرضي، أطل من النافذة المطلة على الشارع، يجسد عامود النور ما يتحرك — في ضبابية الطريق — من أطياف.

الرحلة طويلة، والطريق شاقة، يحفزني الشوق إلى المعنى. حتى يبلغ الصوفي غاية الطريق، فإن عليه أن يعد نفسه بالرياضات والمجاهدات، يسلك الأصول التي تفرغ قلبه

عن كل ما سوى الله. أمضى في الشوارع المتوازية، المتقاطعة، المؤدية إلى البحر. الأسوار الحديدية في نهايات الأرصفة، والإعلانات الملونة، ولافتات المحال والشرفات والنوافذ. أتوقع ما تغيب ملامحه، أنتظر قدومه. في بالي قول الشيخ صالح جاد الرب: يحاولون الحصول في حياتك على ما لا يملكه أحد، ولا يحصلون بموتك على أي شيء.

ما قاله جاد الرب دفعني للتقدمي طريق كنت أخاف السير فيها. انطلق — من ناحية الأرض الخلاء — طائر — لم أتبينه — حلق في دائرة، ثم اتجه — بسرعة — نحو الأمواج الساكنة، صعد بسمكة تنتفض بين منقاره.

أزمعت المواجهة، أتحرك — بلا خوف — أمامهم، أجاوز ما أعيشه، أتصور الآتي، لا ملامح ولا قسمات، إنما هي حياة أخرى، أتمناها، لا يوقفني شيء عن مقصدي.

صوت في داخلي يدفع خطواتي، يوجهني، ليس صوت شيخ الطريقة، ولا صوت الشيخ جاد الرب، ولا حتى صوت مختار رزق، هو صوت لم آلفه، ولا استمعت إليه من قبل.

أشعر أني خلفت — أو هذا ما يجب أن أفعله — أشياء كثيرة ورائي. أترك ما فات من حياتي خلف ظهري، لا أدير رأسي ناحيته. أعرف الطريق الذي يجب أن تتخذه خطواتي، لا أحيد — قدر الإمكان — عنه، وأبتعد عن طرق أخرى، خاطئة.

الشعور بالطمأنينة يداخلني بما يشبه الومضة، ثم يختفي. في بالي أن أجاوز التوقع إلى الفعل، أتقي المفاجأة، لا أنتظر حدوث الشيء فأفكر في رده، إنما أحاول التعرف إلى ما تحت الرماد، فأطفئه.

قال الشيخ جاد الرب: إنهم لا يريدون قتلك، إنما يريدون تخويفك حتى تدلهم على موضع الملف.

ومض السؤال: ماذا كان يحوي الملف قبل أن يخلو إلا من هذه الجمل المتناثرة والطلاسم؟

أعرف أنه يضم أوراقًا عجز شيخ الطريقة عن حل ألغازها، وإن دفع التوهم الشيخ محسن الأشعل إلى تدبيرات تفضي إلى طريق مسدود. اطمأننت إلى معرفتي أين أمضي في الاتجاه الذي سرت ناحيته. أتوقع، أتمنى، أن يتغير كل شيء، يعود إلى ما كان عليه. لن أمضي العمر سائرًا كطيف، كشبح، يحرص ألا يراه أحد. أعود إلى حياتي القديمة، أرى العالم في صورته التي كانت، ما عشته قبل أن يسقط الملف من رف الكتب. لا يشغلني الملف، وما يحويه، قدر انشغالي بأن أسترد نفسي.

لا أسرار يعوزني الاحتفاظ بها. تهفو النفس للتغلب على وعثاء الطريق، أسلك إلى مقام أطلبه، يتحقق الأنس بذكر الله، والهتاف باسمه، والعروج إلى سماء الحقيقة، والعيش

بالقرب من نور اليقين، تستغرقني الغبطة المطلقة، والسلام الكامل، كأن روحًا جديدة في جسدي.

أمواج البحر لا تبلغ ساحلًا تنكسر عليه.

محمد جبريل
مصر الجديدة ٢٠١٧م

هنـــداوي